روايات عبير



آن هيثر

الشلالات البعيدة

١٧٩

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 179

الشلالات البعيدة

مصائب قوم عند قوم فوائد. . . لولا الحادث الذي أصاب غلين لما استطاعت كاترين ان تلعب دور أختها فالتينا التي فرت من مسؤوليتها تاركة الشاب المسكين في المستشفى فاقد البصر. ولولا مجيء عم غلين من كندا للاهتمام به لما التقته كاترين. . . لكن جيرد ليس الرجل الذي يسهل قيادة او اختراق مشاعره، وحتى آخر لحظة، حتى ضياعها في الضباب قرب الشلالات الخطرة بسبب غيرة المرأة التي تحب جيرد، لم تكن كاترين متأكدة من شيء. . . لكن صوتاً شق الضباب ويدين انتشلتاها من صقيع الوحدة.

وراء المسافة، ينتظرها رجل آخر حاول ان يمنع القدر من تحقيق قضائه، لكنه فشل تماما. . .

لبنان ١٠ ل.ل.	الكويت ١ د	اليمن ٤ ر	السودان ٨٠٠م
سورية ١٠ ل.س	الامارات ١٢ د	تونس ١٥٠٠ د	U.K. £1
الأردن ٨٠٠ ف	البحرين ١٥٠٠ د	ليبيا ١ د	France F 10
العراق ٥٠٠ ف	قطر ١٢ ر	المغرب ٩ د	Greece Drs 200
السعودية ١٢ ر	عمان ١٥٠٠ ر	مصر ٢٠٠ق	Cyprus P 1.500

١- الحادث المريع

- كاترين، يجب أن اراك . . .

كان صوت فالنتينا على الهاتف متوتراً يشوبه كثير من الخوف والقلق، مما جعل كاترين تتوقع ان ثمة مأزق آخر وقعت أختها فيه، وتريد مساعدتها لتنجو منه.

- ليس الليلة يا فالنتينا.

اجابتها كاترين بحزم، وهي تثبت سماعة الهاتف بين أذنها وكتفها، لتستمر في فصل أوراق الكاربون من التقرير الذي كانت لتوها قد انتهت من طباعته على الآلة الكاتبة. وتابعت:

- ليس الليلة يا فالنتينا، عليّ ان ابقى في المكتب حتى ينتهي اجتماع مجلس الادارة، واستلم محضر الجلسة لأقوم بطباعته. ومن ثم سيمر بي سيمون ليصحبني معه في الساعة السابعة والنصف تقريباً.

- سيمون! سيمون! (صاحت فالنتينا بمرارة) يمكنك أن تريه في وقت آخر.

ضبطت كاترين أعصابها، حتى لا ترد رداً قاسياً، وقالت:

- لكني اتفقت معه على ذلك. وليس في نيتي الغاء هذا الموعد.

تعالى صوت فالنتينا لما أصابها من خيبة، قائلة:

- كاترين، هناك شيء رهيب قد حدث. وأنا في حيرة من امري، لا اعرف كيف أتصرف.

ألقت كاترين الأوراق المطبوعة باتقان من يدها، وامسكت سماعة الهاتف جيداً، وقالت:

- اسمعي يا فالنتينا، أنت لست طفلة، لقد بلغت الثامنة عشرة من العمر. وهذا يكفي لكي تتمكني من تحمل مسؤولياتك بنفسك. هل لأني أكبر منك سناً...

قالت فالنتينا مقاطعة:

- لكن، أختاه، انني دائماً أعتمد عليك.

ضاقت كاترين ذرعاً بمشاكل أختها وتحمّل مسؤولياتها. ولم تعد تحس برغبة في الاستمرار في ذلك. فهي لم تكن تكبر فالنتينا الا بسنوات ثلاث. وهذا لا يعني انه يجب عليها ان تكون مسؤولة عن اختها الصغرى مدى الحياة. ألا يكفي انها منذ كانت في مثل سنها، وهي تحمل أعباء العائلة على كتفيها؟ لقد تحملت كاترين أعباء العائلة، وهي في الثامنة عشرة من العمر، بدلا من أمهما التي قتلت أثناء الثورة في افريقيا الوسطى، حيث كان أبوهما يعمل هناك في ذلك الحين.

كانت الأختان في مدرسة داخلية، عندما بلغهما خبر مقتل والدتهما. فوقع النبأ عليهما وقوع الصاعقة. وأحست فالنتينا، وهي لم تتجاوز الخامسة عشرة بعد، انها فقدت الركيزة التي تعتمد عليها. ولم يبق امامها سوى أختها كاترين، تحملها مسؤولياتها. تلك الأخت التي كتمت أحزانها في صدرها، وغمرت شقيقتها بحنانها، لتعوضها عن فقد أمها.

عاد والدهما السيد مالوري الى لندن، ليعيش مع ابنتيه. ولكن سرعان ما ضاق بمشاكل العائلة، وتسرّب الضجر الى نفسه. وفكر بالرحيل ثانية. فتلاشت آمال كاترين في الانتساب الى الجامعة. والتحقت بوظيفة في أحد المكاتب، بينما كانت تتدرب على أعمال السكرتارية في معهد ليلي.

اما السيد مالوري، فقد قبل عملا آخر في جنوب افريقيا. وترك ابنته كاترين مسؤولة عن المنزل الذي استأجره في هامرسمث.

استمرت فالنتينا سنة أخرى في دراستها. لكنها عندما بلغت السادسة عشرة من العمر، طلبت من اختها ان تأذن لها بالعودة الى المنزل. ولما لم يبد الوالد اعتراضاً على ذلك، اضطرت كاترين ان توافق على طلبها.

أحست كاترين ان تلك الموافقة كانت اكبر غلطة اقترفتها. وهذا ما تأكدت منه الآن. فان فالنتينا لم تستطع ان تضبط نفسها في تصرفاتها. وكانت تتجاهل نصائح أختها وتوجيهاتها. كما تجاهلت رجاءها عندما

طلبت اليها ان تجد وظيفة ملائمة تثبت فيها بدل الاستمرار في التنقل من عمل غير مناسب الى آخر. فقد عملت في الملاهي، وأماكن المراهنة، ومع فرق الديسكو. وقضت قسطاً كبيراً من وقتها في مصاحبة جماعة من المراهقين، الذين لا هم لهم الا العبث، ولا يشتهرون الا بخصلات شعورهم المتهدلة، ومظهرهم الشائن.

نسيت كاترين عدد المرات التي دعيت فيها لتستمع الى شكاوى مخدومي اختها، فتسوّي الخلافات بينهم. حتى اضطرت اخيراً ان تكتب لأبيها، تطلب منه، ان يستدعي فالنتينا اليه.

عندئذ وافقت فالنتينا على ان تجرّب مهنة التمريض. ولما مضى عليها ستة أشهر كطالبة في مشفى سانت ماري، أظهرت خلالها حباً لهذه المهنة واهتماماً بها أحست شقيقتها بشيء من الراحة، وهي تأمل ان تصبح الأخت الصغرى أكثر تحملا للمسؤولية.

كانت فالنتينا قد بلغت الثامنة عشرة من العمر، عندما تعرفت الى شاب يدعى غلين فريزر. وأطلعت أختها على ذلك.

ومع ان كاترين كانت سعيدة، لأن اختها كما يبدو عزمت على الاستقرار، الا انها كانت قلقة في الوقت نفسه لما يخالجها من الشك في نهاية تلك العلاقة.

لم تلتق كاترين بغلين فريزر مطلقاً. وكل ما أخبرتها أختها عنه أنه شاب كندي الأصل، طالب في مدرسة لندن لعلم الاقتصاد.

والآن ما الذي حدث، كي تهتف لها في الساعة التاسعة والنصف صباحاً وتطلب رؤيتها بإلحاح. فمن الجلي ان كارثة جديدة وقعت.

قالت كاترين مستوضحة:

- لماذا تريدين رؤيتي؟ فان كان هناك أمر هام، اخبريني الآن، لأرى ما يمكن أن أفعل.

- لا استطيع ان أخبرك على الهاتف. كاترين أرجوك، يجب ان تحددي لي موعداً اليوم. ان عملي يبتدىء في الساعة الثامنة مساء.

تنفست كاترين بشيء من الارتياح. اذن فالنتينا لم تفقد عملها. والمشكلة لا تتعلق بالمشفى. وأية مشكلة أخرى لن يكون لها هذا المستوى من الأهمية، حتى تلح عليها أختها هذا الالحاح، وتصر على ان تراها

اليوم. اذن لننتظر الى الغد.

قالت كاترين:

ـ فالنتينا. . .

قاطعتها فالنتينا من غير ان تترك لها مجالا للكلام:

ـ كاترين أرجوك.

استسلمت كاترين كما تفعل دائماً. وقالت:

ـ ماذا عن وقت الغداء؟ يمكنني ان أدبر أموري وأكون عندك قبيل الواحدة. فهل هذا الوقت مناسب لك؟

أجابت فالنتينا بحماس:

ـ آه، نعم.

ـ ولكن الا تريدين أن تأخذي قسطاً من الراحة. طالما ستعملين في المساء؟

ـ في الليلة الماضية كانت عطلتي. سأراك في الواحدة.

قالت ذلك، ووضعت السماعة مباشرة، قبل ان تغيّر كاترين رأيها.

بقيت كاترين تفكر طيلة الصباح. لماذا تريد فالنتينا رؤيتها؟ وبهذه السرعة؟ وبهذا الالحاح؟ وأخذت تتذكر، كم من مرة اتصلت بها لتقترض منها بعض المال، اولتسدد عنها قيمة الفواتير، أو لتخرجها من بعض المآزق التي تزج نفسها فيها. ولكن من الواضح ان هناك ما هو أكثر أهمية من ذلك كله. وكم تمنت ان تكون مخطئة في حدسها، ولا تكون المسألة أكثر من طلب تسديد دين لم تستطع فالنتينا دفعه.

كانت السماء ملبدة بالغيوم، والمطر ينزل غزيراً وقت الظهيرة، عندما غادرت كاترين المكتب الذي أصبحت تعمل سكرتيرة فيه.

ولما لم تتمكن من الركوب في أية سيارة نقل عامة من شدة الزحام، اضطرت للسير مسافة غير قصيرة تحت زخات المطر المتواصلة، لتبلغ القطار الذي يتجه الى بالهام أقرب محطة الى مشفى سانت ماري. وما ان وصلت الى القطار، حتى كانت قد تبللت من رأسها الى أخمص قدميها.

عندما نزلت في بالهام، كانت لا تزال أمامها مسيرة عشرة دقائق لتصل الى المشفى. وكانت ساعتها تدل على الواحدة والربع. وهذا يعني انها تأخرت عن الوقت المحدد. ولا شك انها ستجد أختها تنتظرها عند البوابة الكبيرة، حيث سبق والتقت بها في المناسبات القليلة التي زارت فيها المشفى.

وهناك وفي المكان نفسه رات أختها تقف بانتظارها كئيبة، واهنة العزيمة. ترتدي بنطالا، وسترة من الفراء تتصل بقلنسوة تغطي رأسها.

ورأتها فالنتينا. فأسرعت لملاقاتها بوجه شاحب قلق يثير الشفقة.

كانت الأختان بالرغم من تباين عمريهما تتشابهان في الطول، وتتشابهان ايضا في لون الشعر. الا ان فالنتينا كانت أكثر نحولا وأقصر شعراً.

ـ شكراً لك على مجيئك.

بدأت الصغرى الحديث، وهي تتأبط ذراع أختها. ووجهها الذي يعلوه الخوف ينطق بحقيقة، لا يمكن التكهّن بها في بضع دقائق.

ولما لم تجبها كاترين، تابعت:

ـ دعينا نذهب الى المطعم، حيث نتناول شيئاً من الطعام.

ترددت كاترين هنيهة، ثم سارت الى جانب أختها دون أية كلمة.

كانت تفضل لو انهما تتناولان فنجاناً من الشاي وقطعة من الجبن وبعض الخبز في غرفة فالنتينا، في بيت الممرضات. حيث يمكنهما التحدث بجدية.

ولكن طالما هذه هي رغبة أختها، فلتذهب معها أينما شاءت.

استمرت فالنتينا في الحديث بصوت ضعيف:

ـ ما هذا الطقس اليوم. كنت أخشى الا تأتي. يا الهي. أي ورطة أوقعت نفسي فيها؟

لم تعلّق كاترين على كلامها، فقد حالت شدة الزحام دون ذلك. ولما أخذت كل منهما شطيرة جبن وكأساً من الشراب، واختارتا زاوية هادئة، وقفتا فيها. تكلمت كاترين:

ـ تعالي، ما الذي حدث؟ انك تبدين كأنك لم تنامي منذ أسبوع.

أخذت فالنتينا نفساً عميقاً، وتناولت جرعة من الشراب ثم قالت:

ـ أجل، أشعر اني كذلك. آه، كاترين، انه شيء مريع. انه غلين، لقد أصيب بجراح!

اضطربت كاترين قليلا. ولكن هان الأمر عليها طالما المسألة تتعلق بغلين وليست بفالنتينا. وسألت:

ـ ماذا حدث؟ وكيف حدث؟

تنهدت فالنتينا تنهيدة عميقة وقالت:

- هو لا يزال في حالة غيبوبة، بلا حراك.

تجهم وجه كاترين وقالت:

- هل تعنين انه أصيب بحادث؟ حبيبتي فالنتينا، تماسكي قليلاً، واعلميني الخبر بالتفصيل.

ابتلعت فالنتينا ريقها، وقالت:

- نعم، يا الهي، هناك حادث!

- حادث سيارة؟

احنت فالنتينا رأسها. اما كاترين فقد بللت شفتيها الجافتين. لقد سبق وأخبرتها أختها ان غلين يملك سيارة سباق سريعة. كما حدثتها عن قيادته المجنونة ومع ذلك فان المهم في نظرها ان فالنتينا بخير ولم تصب بأذى. وأضافت:

- أين هو؟

غضت فالنتينا من بصرها وقالت:

- أين هو؟ في المشفى طبعاً، في أي مكان آخر يمكن ان يكون؟

- أي مشفى؟ بالتأكيد ليس في سانت ماري.

- آه، لا. هو في مشفى جود. اخذوه الى هناك بعد الحادث.

وهزت رأسها وبدا الخوف في عينيها وتابعت:

- يا الهي، كم كان منظره يبدو مخيفاً. ظننت في بادىء الأمر انه مات.

وضعت كاترين يدها على ذراع اختها بحنان، وقالت:

- مسكينة فالنتينا، ليس بالغريب ان تكوني على هذه الحال. ولكن كيف هو الآن؟ أعني هل يتوقع الأطباء شفاءه؟

صاحت فالنتينا بعنف:

- يجب ان يشفى. نعم يجب ان يشفى. والا فاني لا أدري ماذا سأفعل..

لم يسبق أن رأت كاترين أختها على مثل هذه الحال من الهيجان والقلق وقالت تحاول تهدئتها:

- لا تضطربي. سيشفى. أنا متأكدة من ذلك، فالأطباء يستطيعون ان يفعلوا المعجزات في هذه الأيام.

- نعم، هذا صحيح.

- اخبريني، متى حدث ذلك؟ أعني الحادث. لماذا لم تتصلي بي حالما سمعت الخبر؟

نظرت فالنتينا الى اختها شاحبة مشدوهة وتمتمت:

- سمعت!

قالت كاترين بلطف:

- سمعت عن الحادث؟ متى عرفت؟ الليلة الماضية على ما أظن. هل علم أهل غلين بذلك؟ اني أتوقع انهم...

قاطعتها فالنتينا وعيناها تتطلعان بقلق، والكلمات تخرج من بين شفتيها كلمة كلمة، كأنها تجاهد في سبيل اخراجها:

- آه، انك لم تفهمي شيئاً يا أختي. انا لم أسمع عن الحادث، أنا كنت هناك، كنت معه. لقد كانت غلطتي! (وتابعت باكية) ألم تفهمي بعد؟ الحادث حصل الليلة الماضية، ليلة عطلتي، وأنا التي كنت أقود السيارة.

تكلمت كاترين لاهثة:

- أنت؟ لكنك لا تحملين اجازة سوق!

أشاحت فالنتينا بنظرها وهي تقول:

- ليس هذا هو المهم. ليس هذا ما أحاول أن أخبرك اياه، آه كاترين، ماذا يمكنني ان أفعل؟ من الممكن أن يموت غلين، واذا حصل، فأنا التي سيقع عليها اللوم.

أحست كاترين بالغثيان، لم تعد قادرة على الوقوف. ألقت القسم الباقي من السندويش من يدها على صينية بجانبها، دون أن تفوه بكلمة.

امتلأت عينا فالنتينا بالدموع، وهي تتابع:

- ألا تستطيعين ان تقولي شيئاً؟ ألا تستطيعين ان تقولي على الأقل انك فهمت؟ يا الهي. كاترين، اذا لم تساعديني، فمن غيرك يفعل؟ أختاه... اني خائفة، خائفة جداً.

وضعت كاترين الكأس على الصينية، وفركت يديها ببعضهما، ثم تمتمت بضعف:

- يجب ان تمهليني بعض الوقت يا فالنتينا. فلست أعرف الآن ما أقول.

تمتمت فالنتينا وهي ترتجف:

- أمهلك. كاترين انني لم أنم ليلة أمس. حتى ولم أتمدد على فراشي. لقد بقيت أهيم على وجهي في الطرقات عدة ساعات، منهوكة القوى، ومع ذلك لم أستطع العودة الى مشفى سانت ماري.

قاطعتها كاترين قائلة:

- انتظري لحظة. ماذا تعنين مشيت عدة ساعات في الطرقات؟ قلت ان غلين أخذوه الى المشفى بعد الحادث.

- نعم هو كذلك. أنا التي اتصلت بنفسي من اجل سيارة الاسعاف.

- ولم يطلبوا منك مرافقتهم؟ أعني الشرطة، لا بد ان الشرطة كانت هناك. ألم يطلبوا منك تقديم افادتك؟

أحنت فالنتينا رأسها والألم يعصر قلبها، وقالت:

- الأمر ليس كما تظنين. عندما وقع الحادث، لم يكن هناك أحد حولنا. آه، أنا لا أعرف كيف حدث. كنت أقود السيارة وأنا في غاية الفرح والسرور. واذا بقطة تقفز أمامنا. صاح غلين، توقفي. ولكن على غير وعي مني، ضربت قدمي دواسة البنزين، فارتطمت السيارة بعامود الكهرباء.

- آه، فالنتينا!

- لقد كان الحادث مريعاً. لا بد ان رأس غلين ارتطم بالنافذة. رأيته مغطى بالدماء. فتملّكني رعب شديد. ولم أفكر في شيء، الا ان ابتعد عن مكان الحادث، خوفاً من أن يراني أحد، أو يشهد عليّ أحد.

- انتظري لحظة. قلت انك اتصلت هاتفياً بنفسك، من أجل احضار سيارة الاسعاف...

- نعم: نعم، من هاتف عمومي قريب اتصلت بهم، ثم فررت هاربة.

ذعرت كاترين مما سمعت، وصاحت:

- فالنتينا!

فالنتينا أخذت تعبث بخصلات شعرها بحركة عصبية، ثم قالت:

- ماذا؟ ما الذي كان يمكنني عمله؟ لقد أخبرتك، كان منظره مريعاً. لم استطع البقاء، هل كنت تتوقعين مني أن أنتظر حتى تأتي الشرطة، وتلقي القبض عليّ؟

تناولت كاترين بقية شرابها، وهي تجمع شتات أفكارها، وحاولت ان

تتكلم بهدوء:

- فالنتينا، الشرطة ستعرف ان هناك شخص آخر كان مع غلين، وأن هذا الشخص هو الذي كان يقود السيارة. فدعينا نواجه الحقيقة. أنت أول المشبوهين. فأنت صديقة غلين، ولا بد انه أطلع أصدقاءه على ذلك...

قاطعتها فالنتينا:

- لا، لا. كان الوقت متأخراً، ولم يرني أحد من أصدقائه معه. كنا في طريق العودة الى المشفى. واتخذنا تلك الطريق الجانبية، حتى أتمكن من القيادة. ولولا ذلك، لكان بامكانه ان يوصلني خلال هذا الوقت. وأن يكون في طريقه عائداً الى شقته.

قالت كاترين بحزم:

- ولكنه لم يفعل. فالنتينا واجهي الحقائق، لِمَ لا تكوني واقعية؟ فان غلين لم يكن أمام المقود.

- لن يعرف أحد ذلك.

- ماذا تعنين؟

هزت فالنتينا رأسها وقالت:

- أخبرتك ان رأس غلين ارتطم بزجاج النافذة الذي تحطم. فسحبت رجليه أمام مقعد القيادة.

- يا الهي. أحسبك قلت انك مذعورة!

كان صدر فالنتينا يعلو ويهبط وهي تقول:

- نعم كنت مذعورة، كنت ارتجف رعباً. ولا يمكنك ان تتخيلي ما كنت احس به هناك، في الظلام الرهيب، وأنا أعلم ان غلين قد يموت بين لحظة وأخرى.

زفرت كاترين بقلق قائلة:

- هل تدركين، انك ستتهمين بجريمة قتل عن غير قصد؟ (وتابعت صارخة) كيف فعلت ذلك؟ كيف فعلت؟

وضعت فالنتينا يديها في جيبيها، وتلفتت حولها، وهمهمت:

- يمكنك أن تتكلمي كيف شئت. فأنت لم تقعي في مثل هذه المتاعب. لا شك انك لم تحبي أحداً. حتى ولا سيمون، أنا متأكدة من ذلك أيتها المتكبرة المتزمتة.

وضعت كاترين يدها على ذراع أختها تهدئها، وقالت:
- لا يمكنك ان تكسبي عواطفي بالتعرّض الى سيمون ترافس. فسيمون صديق حميم، وأنا معجبة به. ولكني لا أعرف ما سيكون شعوره عندما يعرف هذه القضية.

لم تفارق علامات الخوف والرعب وجه فالنتينا، وهي تعلّق على كلام أختها:

- معجبة. ما أروعها من كلمة تستعملينها عن الرجل الوحيد في حياتك.

تجاهلت كاترين كلام أختها الأخير. فالمسألة الآن أخطر من أية مشكلة سبق وأوقعت فالنتينا نفسها فيها. ولكنها لا تعلم بماذا تنصحها. فهل من الخير ان تقنعها بالاعتراف؟ وهل اعترافها سيساعد غلين على الشفاء؟ بالتأكيد لا. أو تسمح لأختها ان تهرب من وجه العدالة؟ في أية حال، هناك حقيقة واقعة لا يمكن لشيء ان يغيرها. فالنتينا هي التي كانت تقود السيارة. وكلاهما كانا لامباليين. فإذا توفي فان اختها هي المسؤولة، وعليها ان تتحمل وزر عملها. ولكن اذا شفي غلين، لا فائدة ترجى من تقديمها للعدالة. وتكفيها هذه التجربة التي تمر بها عقاباً لها وعبرة، لعلها لا تعود في المستقبل الى مثل هذه الأعمال الطائشة.

فالنتينا كانت تراقب اختها بفارغ صبر تنتظر منها حلا تنتشلها به من هذا المأزق الذي وقعت فيه. ثم قالت:
- هل تريدين كأساً آخر من الشراب؟
- لا شكراً، يجب ان أذهب حالا.
أمسكت فالنتينا بأختها تحتجزها وقالت:
- الى أين؟ لم أسمع رأيك بعد!
- رأيي؟ فالنتينا كيف عرفت ان غلين لا يزال في غيبوبة؟ هل اتصلت هاتفياً بالمشفى تسألين عنه؟
- لا، بل هم الذين اتصلوا بي.
رفعت كاترين حاجبيها باستغراب وقالت:
- هم اتصلوا بك؟
هزت فالنتينا كتفيها:

- نعم هم اتصلوا بي، انها حقيبتي. نسيت حقيبة يدي في السيارة.
- فالنتينا!
- من أجل هذا أردت ان أراك. أريد منك فقط ان تقولي لهم اني أمضيت الليلة في شقتك.
دبّ الهلع في قلب كاترين وبدا الشحوب على وجهها. وقالت وشفتاها ترتجفان:
- لكن. . . لكن لماذا؟ ماذا يفيدك ذلك؟
- اسمعيني كاترين، ان شقة غلين ليست بعيدة عن المشفى كما أعلمتك. وأريد ان أوهمهم انه أوصلني الى شقتك أولا، ثم تابع طريقه قاصداً منزله.
- لماذا أوصلك الى شقتي، وليس الى المشفى؟
قالت فالنتينا بفارغ صبر:
- أوه كاترين، ما بك؟ يجب ان أثبت لهم اني كنت في مكان آخر عند وقوع الحادث. أخبرتك بما جرى. فقد سرت في الطرق بضع ساعات أهيم على وجهي: ولم أعد الى المشفى الا في الصباح، حيث اكتشفت انهم يبحثون عني. فماذا تريدين مني أن أقول لهم؟
أخيراً فهمت كاترين كل شيء. اختها لم تكن لتفضي لها بأسرارها لولا انها أخطأت بترك حقيبتها في السيارة. وكالمعتاد فهي تريد منها ان تجد لها حلا. ثم سألتها ببرود:
- ماذا قلت لهم؟
اجابت فالنتينا صارخة:
- أخبرتهم اني كنت معك في شقتك. ماذا يمكنني ان أقول غير ذلك؟
ردت كاترين عليها بغضب:
- اذن انت لا تطلبين مساعدتي، بل تخبرينني ما يجب عليّ ان أفعل.
- لا ليس الأمر كذلك، كاترين.
- ما هو اذن؟
خفضت فالنتينا من صوتها وقالت بشيء من الاستعطاف:
- كاترين، لا يمكنك ان تتخيلي ما كنت أحس به. كان يجب ان أجد سبباً منعني من النوم في بيت الممرضات تلك الليلة. هل كان بامكاني ان

أخبرهم الحقيقة؟ بحق السماء، ساعديني، انه شيء بسيط!
- أشيء بسيط! واذا مات غلين فريزر، ماذا سيحدث؟ تجعلين مني شريكة في الجريمة، لأني تسترّت عليك.
- سوف لا يموت...
- آمل ذلك، لأنه اذا مات، لن أقف جانباً وأتركك تفلتين من غير عقاب.

عادت كاترين الى مكتبها بعد الظهر. وكان من الصعب عليها ان تركز تفكيرها في نقطة معينة. فقد كان رأسها يضج بالأمور التي اخبرتها اياها فالنتينا. كان من الصعب عليها ان تصدق ان أختها ألقت بنفسها في مثل هذه الورطة. وعجبت كيف يمكن ان تكون، هي وفالنتينا أختين ومختلفتين الى هذا الحد. انه منذ تركت أختها المدرسة، وهوة سحيقة تفصل بين طباعهما وتصرفاتهما لا يمكن اجتيازها.

السيد جورج يات مديرها الحالي، رجل متوسط السن، سريع الغضب، ولكنه رجل أعمال ناجح. ومعجب بعملها فهي سكرتيرة جيدة، لا تعتمد على احد. ويمكنها ان تقوم بالعمل وحدها اذا اقتضى الأمر.

كان السيد جورج مصاباً بقرحة في معدته ويعاني منها الكثير. وحتى الدواء لم تكن تغفل كاترين عن اعطائه اياه عندما يحس بالألم. ولكن بعد ظهر ذاك اليوم، كانت قلقة، شاردة الذهن، مما أثار المدير وجعله يصيح بها:

- ما بك كاترين؟ هل تحاولين اغضابي؟ لقد طلبت منك مرتين ان تناوليني ملف السيد ماكدونالد، وبكل بساطة تجاهلت طلبي.
- اني آسفة، سيد جورج. اني أشعر بشيء من الصداع، وهذا كل ما في الأمر.

أجابها وعدم الرضى باد في عينيه:
- ان الألم الذي أعانيه من معدتي، يكاد يمزقني فهل هذا يعني ان أتخلف عن اتمام أعمالي؟ وأقول اني أحس بشيء من الألم، وهذا كل ما في الأمر.

حاولت كاترين ان تقول شيئاً، ولكنها لم تستطع، واكتفت بايماءة من رأسها، محاولة ان تركز انتباهها على ما يمليه عليها. لم يكن ذاك بالأمر

السهل. وكم كانت تتمنى الا يتذكر السيد جورج كل كلمة أملاها عليها عندما يراجع اختزالها.

كانت مدة اجتماع المجلس قصيرة. وتنفست كاترين الصعداء عندما وجدت نفسها خارج المبنى، وسيارة سيمون بانتظارها في مرآب الموظفين.

كان قد انقطع المطر، وتلاشت الغيوم. وانقلب الجو فجأة كأنما حل الربيع، معتدلا لطيفاً، أمسية من أمسيات نيسان الجميلة، وأنوار المدينة تتألق في كل مكان، تدحر الظلام وتضيء جميع الشوارع المعتمة.

حيّاها سيمون بلمسة لطيفة، عندما تسللت الى جانبه داخل السيارة. وردت عليه التحية بأحر منها.

هز سيمون رأسه وهو يتفحصها، ثم قال:
- تبدين شاحبة اللون، ما بك؟ هل كان السيد جورج عصبياً مرة أخرى؟

أدارت كاترين وجهها بحركة من كتفيها تدل على عدم رغبتها الخوض في أي موضوع، وقالت:
- دعنا من هذا الآن. ولنذهب، اني أكاد أموت جوعاً.

وراحت في شرودها، والطعام آخر ما كانت تفكر به. اما سيمون فقد حرك مقود السيارة، وهو يحاول ان يلفت انتباهها بحديثه، فقال:
- بالمناسبة، لقد قطعت تذكرتين لحضور الحفلة الموسيقية، التي ستقيمها فرقة بارتوك، يوم الأحد. انا أعلم انك لست كثيرة الحماس لهذا الموضوع، ولكنك في كل حال سوف تستمتعين ولو ببعض الشيء.

كانت فكرة حضور حفلة موسيقية بالنسبة اليها في هذا الوقت، كفكرة تناول الطعام. لاحظ سيمون تغييراً بدا على هيئتها، وكذلك في تصرفاتها، فتابع قائلاً:
- ما الأمر؟ ما بك يا كاترين؟ يبدو ان أعصابك متوترة ونظراتك شاردة. هل هناك ما يقلقك؟

تظاهرت كاترين بالابتسام وقالت:
- لا ليس هناك أي شيء. ولكني متعبة فقط.
- ألا أظنك غاضبة مني بسبب يوم الأربعاء الفائت. فقد كان لدي من العمل الكثير.

- آه، لا... طبعاً لا.

كان سيمون ناجحاً كمدرّس. وليس خطأه ان تأخذ والدته من وقته الكثير. فهي أرملة متقدمة السن. وكانت كاترين تفكر بما يمكن ان يحل بهذه المرأة، لو ان سيمون قرر الزواج وأراد ان يستقل عنها في حياته. لعلها تريد من زوجته المرتقبة ان تسكن معها. ولكنها هي، كاترين لا يمكن ان تشاطر والدة سيمون منزلها. فالسيدة ترافس ستقف لا شك في طريقها. ولن تسمح لأي امرأة ان تغتصب مكانتها من عواطف ولدها.

وتابع سيمون حديثه وهو يقود السيارة:

- أنت تعرفين الأمهات، فهي تكره ان ترى البيت تعمه الفوضى. وكان عليّ ان أساعدها في ترتيبه وتنظيفه. وقد استغرق ذلك مني وقتاً طويلاً. أما الآن وقد انتهيت من ذلك كله سيكون لدينا متسع من الوقت لنقضي أمسياتنا معاً.

حاولت كاترين ان تخفي ما بها خلال حديث سيمون. فلم يكن لديها أي استعداد لتفضي اليه بشيء الآن. يجب عليها ان تفكر ملياً بالأمر أولاً.

ذهبا الى أحد المطاعم. وكان الطعام الصيني الذي قدّم لهما أحبّ الأطعمة الى كاترين. ولكن في هذا المساء لم تأكل الا قليلاً. وقد لاحظت ان سيمون انتبه الى ذلك. وجميع محاولاتها لتخفي اضطرابها عنه ذهبت سدى.

وعندما صارا في طريق العودة الى منزلها، نظر سيمون اليها نظرة مليئة بالشك وقال:

- هل أنت متأكدة يا عزيزتي، انك لست مستاءة مني؟ أرجوك، صارحيني، فأنا لا أحب ان تضمري شيئاً من جهتي في نفسك.

رفع سيمون يده عن المقود، وربت على يدها بحنان ورقة، وتابع:

- بالحقيقة، حان الوقت الذي يجب ان نفكّر فيه بالمستقبل، بمستقبلنا يا...

شعرت كاترين بارتباك، وقاطعته:

- ليس الليلة، سيمون اني متعبة جداً. وأظن سأبقى في الفراش حتى ظهر الغد.

أوقف سيمون السيارة أمام البناء الذي تشغل كاترين احدى شققه، وقال:

- لن ألحّ عليك الليلة، ولكن لا تتوقعي ذلك مني في الغد.

تصنعت كاترين ابتسامة باهتة:

- شكراً يا سيمون.

- ألا تدعينني الى فنجان قهوة؟

- لا، ليس الليلة.

ربت على كتفها بحنان قبل ان تتسلل من السيارة، وقال:

- اذن، سوف أوصلك الى باب الشقة.

- ليس هذا ضرورياً، فالساعة ما زالت العاشرة والنصف، والناس ما زالت تغص بهم الطرقات.

- لا بأس أريد ان أتأكد بنفسي من وصولك سالمة الى البيت، هيّا اسرعي فقد تغيّر الطقس وأصبح بارداً.

لم يكن مظهر المبنى من الخارج جيلا. ولكن الشقة من الداخل كانت مقبولة ومرتبة. وهي مؤلفة من غرفتي نوم، وغرفة جلوس، وأخرى للمكتبة وبقية المرافق من مطبخ وحمام. كانت فالنتينا تشاركها غرفة النوم عندما كان والدهما السيد مالوري يعيش معهما. ولكن بعد رحيله الى جنوب افريقيا، حلت الصغرى محله. ونقلت جميع حاجياتها الى غرفته.

دخلا المصعد، فارتفع بهما الى الطابق السادس. وكان باب شقتهما مواجهاً لباب المصعد، لا يبعد عنه الا بضعة ياردات. قالت كاترين:

- سيمون، حتى هنا يكفي. لا تتعب نفسك، ليس هناك ضرورة الى ذلك، سوف أراك غداً.

- لا بأس.

أجاب بذلك سيمون وفي صوته نبرة أسى. وكأنه كان يتوقع ان تغيّر رأيها وتدعوه لتناول فنجاناً من القهوة، في اللحظة الأخيرة. لكن هذا لم يحدث، فكاترين كانت بحاجة لأن تكون وحدها. قالت:

- أسعدت مساء، سوف أراك غداً.

شدّ على أصابعها قبل ان يتركها وقال:

- مساء سعيداً، اني أحبك.

الى جانب قلقها على أختها، لم تكن كاترين متأكدة من مشاعرها نحو

سيمون. انه بالنسبة اليها ليس اكثر من صديق. أما الحب بحد ذاته، فهو شعور تعلمت كيف تعيش من دونه. احبت ابويها، احبتهما بعمق. ولكنهما وضعاها في مدرسة داخلية بعيدة عن عنايتهما، بعيدة عن الشعور بالاطمئنان في ظلهما. وبعدما توفيت والدتها، ظنت ان أباها سيعيش معها ويرعاها، ولكنه آثر ان يسافر الى جنوب افريقيا ويبتعد عنها. اما الآن فان فكرة منح رجل حبها غير واردة في ذهنها.

سارت نحو باب شقتها، ويدها في حقيبتها تبحث عن المفتاح.

- آنسة مالوري.

نغمة غريبة أثارت أعصابها. وبحركة آلية استدارت وهي تمسك بحزام حقيبتها تستعد لاستعماله في الدفاع عن نفسها، اذا اقتضى الأمر. رأت رجلاً غريباً طويل القامة يقف وراءها. الرجل دعاها باسم عائلتها، فلماذا ينبهها الى حضوره، لو كان يريد بها شراً؟

من المؤكد انه لا يبدو لصاً. ولكن المجرمين عادة مقبولو المظهر، لا يدل ذلك على حقيقتهم. لقد قرأت ذلك، وسمعت أيضا، لا شك في المجلات، والتلفزيون، فانهم دائماً يحذرون للنساء من الغرباء. وهذا الرجل غريب. كان طويل القامة، أسمر اللون، جذاب الهيئة. وليس هناك سبب يجعلها تشك في أمره. وسألت خائفة:

- ماذا تريد؟

- آنسة مالوري، أنا لست لصاً او مجرماً، واني آسف لأني أثرت الرعب فيك. ولكني حسبت انك سمعت وقع خطواتي.

كان جسمها يرتجف وهي تجاهد لتبدو هادئة. وتريد ان تقول اي شيء لكسب الوقت. لعل احد السكان يخرج الى الممر، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، والمصعد الذي سمعت حركته تجاوزها الى الطابق الأعلى. وبقيت وحيدة أمام هذا الرجل الغريب، دون أمل بمساعدة أحد. ومع ذلك كان يجب ان تقول شيئاً. فأجابت:

- حسناً أنا لم أسمع. ولم أتوقع زوّاراً في مثل هذا الوقت والساعة الحادية عشرة من الليل.

- أنا أعلم ذلك. واني لآسف. ولكني بحاجة لأن أتحدث اليك، آنسة مالوري. والآن هل يمكن ان تدعيني للدخول؟ أم تفضلين ان أبقى هنا،

لأقول ما جئت من أجله؟

- انتظر لحظة...

وقالت في نفسها، ماذا يفعل هذا الرجل هنا؟ وبأي حق يحسب انه يمكن ان يبادلها الحديث؟

- اسمي جيرد فريزر. أظن ان هذا الاسم يعني شيئاً بالنسبة اليك. أنا عم غلين فريزر، وجئت لأعرف تفسيرك لهذه اللامبالاة التي تبدينها، بينما ابن أخي يموت بسببك.

٢- الهروب

- هذا ليس صحيحاً!

أجابت كاترين آلياً وقد احمرّ وجهها الشاحب عندما سمعت كلامه.

نظر السيد فريزر إليها شزراً وقال:

- إذن لماذا لست في المشفى؟ على الأقل لتتظاهري أنك مهتمة بحياته.
- نعم أنا مهتمة. مهتمة كاهتمام أي شخص آخر.
- أي شخص آخر؟ ماذا تعنين بهذا الكلام؟
- نعم أي شخص. آه، أظن أنه من الأفضل ان تدخل. انت مخطىء يا سيد فريزر. أنا لست من تظن؟ أنت تحسبني فالنتينا اختي، أنا كاترين.
- كاترين!

وعندما فتحت الباب، دفعها الى الداخل، وأغلق الباب خلفها، وقال:

- أنت تكذبين!

كانت أصابعه الحديدية حول ذراعها تضغطها نحو الحائط، وهو يتابع:

- الأفضل ان تفكري في حيلة أخرى وبسرعة يا فالنتينا، أنا قابلت شقيقتك كاترين عندما جئت الى هنا بعد ظهر اليوم.
- أنت مخطىء يا سيد فريزر، أنا كاترين مالوري، ويمكنني ان اثبت لك ذلك. والآن هل يمكن ان تترك ذراعي؛ فقد آلمتني كثيراً.

لم يترك ذراعها. كانت تخشى ان تحاول تخليص نفسها منه بالقوة، فهي لا شك لا تستطيع ذلك، لكن ما خافت ان يحدث هو ان ينسدل شعرها حول وجهها الشاحب، وعينيها الزرقاوين. فهزّت رأسها بلا حول، بينما

هو استمر في امساكها كسجينة، وقال في لهجة الآمر:

- كرري ما قلت ثانية.

كانت قريبة منه، قريبة جداً، تحس بحرارة انفاسه. أعادت كلامها متلعثمة:

- قلت لك أنا كاترين مالوري، ولا اعرف من رأيت بعد ظهر اليوم ولكن بالتأكيد لست أنا.

فأردف قائلاً:

- قالت لي انها هي كاترين مالوري، وان فالنتينا ليست في المنزل. وعليّ أن اعود في وقت لاحق، من غير ان تحدد لي ساعة معينة. ولذا عدت في السادسة، ومرة أخرى في الثامنة. وهذه هي زيارتي الرابعة يا آنسة مالوري، ولن اذهب قبل أن أعرف الحقيقة.

ارتعشت كاترين عند سماعها هذا الكلام. ولكنها أرادت ان تخفف من غضبه. فعقّبت قائلة:

- سيد فريزر، ليس المهم ما قيل لك. الحقيقة تبقى، أنني أنا كاترين مالوري، ولست فالنتينا. وأتمنى أن تتوقف عن النظر إليّ كمتهمة بجريمة.
- ألست كذلك؟
- لا. بالتأكيد لا. بحق السماء اتركني، اترك ذراعي، لقد أسلت الدم منها. فانت اطول، واعرض، واقوى مني، ولا اظنك تخاف ان اتغلب عليك.

افلت الرجل اصابعه وعاد الى الوراء، ثم علق بخشونة:

- انت رابطة الجاش آنسة مالوري. كان يجب ان أتوقع ذلك.

قالت كاترين في نفسها، لا بد أن فالنتينا تكلمت معه، ونجحت في خداعه. لكن لماذا؟ ما الذي تأمل ان تجني من ذلك؟ بفعلتها تلك زادت الأمور تعقيداً.

ما يزال السيد جيرد فريزر واقفاً أمامها، ينتظر تفسيراً. رفعت بصرها اليه وقالت:

- الأفضل ان تدخل.

أنارت الاضواء، وقادته الى غرفة الجلوس. ما هذا الذي يحدث؟ إنها لا تكاد تصدّق. ولكن ها هو الرجل الغريب، الضيف غير المرغوب فيه،

يجلس بكل حرية، ومن غير تكليف على احد المقاعد امامها.

افرغت كاترين محتويات حقيبتها على الطاولة، ثم التقطت من بينها بطاقة المصرف، ودفتر الشيكات. والقت بها امام السيد فريزر قائلة:

- أظن ان هذه الأشياء توضح لك الموقف وتؤكد لك اني كاترين. واذا كنت تريد أدلة اكثر، فان سيمون، الشاب الذي كان يرافقني هذا المساء سوف. . .

ولكنها لم تستطع الاستمرار في الكلام. وأحست بالدموع حارة تنسكب من عينيها. ادارت ظهرها نحوه، تمسح دموعها، محاولة ان تضبط أعصابها.

احست أنه كان يقلّب الأدلة التي وضعتها بين يديه، من غير ان يسرع في الاعتذار. واخيراً قال:

- نعم هذه الأدلة. ولكنني استطيع الشك بصحتها. فلو كنت أريد ان اتظاهر بأني شخص آخر، عليّ ان اتدبّر أمري واهيء الادلة اللازمة.

استعادت رباطة جأشها وقالت:

- آه، انك انسان لا يمكن احتماله. لماذا لا تريد ان تصدقني؟ لماذا أكذب عليك؟

- ولماذا تكذب اختك؟

برهة صمت مضت، وقف السيد جيرد فريزر بعدها، ومشى الى الطاولة حيث أعاد ما في يده. ثم رجع الى مكانه، وهو يشكرها وقد بدا اقل عداء مما كان.

لم تنكر كاترين بينها وبين نفسها انه كان رجلا مزعجاً. مزعج بظهوره المفاجيء، وسلوكه العدائي. لكنه يملك عينين سوداوين فوق وجه نحيل ينطق بالذكاء، ووجنتين مرتفعتين وأنف بارز، وفم بشفاه رقيقة. هي لم تر غلين مطلقاً، ولكن ان كان يشبه عمه فيمكنها الآن ان تعرف لماذا كانت فالنتينا تراه جذاباً الى هذا الحد.

احست كاترين بالقلق اكثر من ذي قبل. وساءلت نفسها: لماذا أتى؟ وماذا يريد؟ ولماذا لم يقم والدا غلين بهذه الرحلة بدل العم؟

رفع جيرد فريزر خصلات شعره الاسود عن جبينه، وقال:

حسناً. "فرض اني قبلت بما قلت، وصدقت أنك كاترين. هذا يعني

ان فالنتينا هي التي تحدثت معي من قبل. اذن اين هي؟

عضت كاترين على شفتيها وهي تقول:

- في عملها بالتأكيد.

- هل تعنين انها في المشفى، حيث هي طالبة تمريض؟ لا، انها ليست هناك يا آنسة.

- ليست هناك؟

- لا.

وهز رأسه واضعاً يديه على صدره العريض. اما كاترين فقد بدت الدهشة على وجهها وسألت:

- ماذا تعني بقولك لا؟

- اين تظنين اني كنت هذا المساء؟

- ولكنها يجب ان تكون هناك. هي اخبرتني انها يجب ان تكون في عملها في الساعة الثامنة.

ضاقت عيناه وهو يقول:

- هل رأيتها؟

- نعم رأيتها. ولكن كان ذلك في وقت الغداء. عندما سمعت منها ما حدث. كيف. . . كيف حال غلين؟

- انه لا يزال في غيبوبة، وقد قال الأطباء انه قد يبقى كذلك بضعة ساعات او بضعة أيام. انهم لا يعلمون الآن ان كان قد أصيب بارتجاج في دماغه أم لا.

تراخت رجلا كاترين تحتها، وأحست كأنها مريضة منذ مدة، وهو يتابع حديثه:

- لكن ما يدهشني، كيف جعله سوء طالعه يرتطم بذلك العامود. مع ان ابن أخي، غلين سائق ماهر. ولا يمكن ان يصاب بحادث من غير سبب.

- ماذا. . . ماذا قالوا لك؟

- من؟ الأطباء، ام الشرطة؟

- الشرطة.

القت نظراته الرعب في قلبها وهو يقول:

- لم تنته تحرياتهم بعد. وهم يظنون ان شخصاً آخر كان يقود السيارة.

من الممكن ان تكون أختك. فهم يعلمون أنها كانت معه ذاك المساء.
قالت كاترين من غير ان تنظر في عينيه:
- أتمنى لو استطيع مساعدتك يا سيد فريزر.
- يمكنك المساعدة. يكفي ان تدليني على مكان اختك. وهذا كل ما اطلبه منك.
- عندما تركتها بعد الغداء، فهمت منها انها ستذهب الى المشفى لترى غلين. ولا يمكنني ان أتوقع غير ذلك.
- لكنها ليست هناك. وليست في سانت ماري أيضاً.
قالت كاترين باصرار:
- انا لا اعرف أين هي الآن يا سيد فريزر، أنا. . . انا أتمنى لو اعرف.
- السؤال الذي يحيّرني هو، لماذا تظاهرت فالنتينا انها أنت؟
- أظن انها فعلت ذلك عندما أدركت من تكون. . .
- كانت مذعورة.
- مذعورة؟ أظن انها كانت خائفة.
- خائفة؟ ولماذا تخاف ان لم يكن هناك شيء تخفيه؟
- آه، أنا لا أعرف.
زاد اضطراب كاترين. . . أولا اعتراف فالنتينا، ثانياً مفاجأة لقاء هذا الرجل عند الباب. ثم ما قاله لها. والواقع ان معرفتها بما فعلت اختها كانت كابوساً مريعاً بالنسبة اليها.
فركت وجنتها بيد، وهي تومىء بالأخرى له بالانصراف، وتقول:
- أظن انه من الأفضل ان تمضي يا سيد فريزر. اني آسفة ولا يمكنني المساعدة. ولكني متأكدة ان فالنتينا ستشرح لك كل شيء عند عودتها.
علق جيرد فريزر بها قائلاً:
- حسناً، اني ذاهب الآن، وسوف أمضي الليلة في المشفى، اراقب حالة غلين. واذا عرفت شيئاً عن أختك، أكون شاكراً لو اتصلت بي هناك.
ثم فتح الباب الخارجي، ووقف لحظة ينظر اليها وقال بلطف، لم تكن تتوقعه منه بعد عدائه السابق:
- ارجو ان تكوني بخير. أنا آسف لأني كنت قاسياً.

تراجعت كاترين عندما رفع يده، ولكن كان كل ما فعله ان مسح بلطف دمعة عن خدها الساخن، بأصابع بنية اللون خفيفة باردة.
وقبل ان يمضي سألت:
- هل سيأتي والدا غلين الى لندن؟
أجاب باقتضاب:
- والد غلين كان أخي الأكبر. وعندما توفي، رعيت مصالح والدة غلين، ارملة اخي. كما قبلت دور الوصيّ على الابن.
- آه. فهمت. حسناً، اسعدت مساء يا سيد فريزر.
- اسعدت مساء يا آنسة مالوري.
استدار جيرد بكثير من الأدب وخرج. اغلقت الباب بعنف خلفه عندما سار باتجاه المصعد.
عادت كاترين الى غرفة الجلوس، وهي ما تزال ترتجف. جمعت محتويات حقيبة يدها، وأعادتها الى مكانها. واخذت تفكر بأمور لا علاقة لها بالموضوع. كانت شقتها متواضعة المظهر. ولم تستطع الا ان تفكر بماذا يمكن ان يكون رأي جيرد فريزر بها. لا شك ان منزله فخم وعلى آخر طراز. هذا ما يبدو من ثيابه وهيئته. وبحركة لا ارادية رفعت كاترين يدها الى رأسها، ووجدت ان الدبابيس سقطت من شعرها، وانه محلول على كتفيها. وتساءلت ماذا يمكن ان يكون رأي جيرد فريزر أمام اناقة النساء الكنديات، والاميركيات، اللواتي شاهدتهن في المجلات والتلفزيون. أما هي فماذا عن عينيها المحمرّتين، وانفها السائل، وشعرها الذي يبدو كأنه لم ير فرشاة منذ بضعة أيام. حتى قميصها الذي كان يبدو أنيقاً هذا الصباح فقد رونقه أثناء النهار.
هزت رأسها واطفأت انوار غرفة الجلوس. وذهبت الى غرفة نومها. حانت منها التفاتة الى نفسها في المرآة، فوجدت ان زينتها جميعها زالت عن وجهها. . . قالت تعاتب نفسها بمرارة: ترى الا يوجد لديها أمور أكثر اهمية من مظهرها تفكر بها؟ ترى في أي مكان على وجه الأرض توجد فالنتينا الآن؟ وماذا ترجو من اختفائها؟
اغتسلت كاترين بسرعة، وارتدت قميص نومها، وجلست امام المرآة تسرّح شعرها الحريري الذهبي الذي كان ينسدل على كتفيها حتى

خصرها، غزيراً ناعماً. نظرت اليه باعجاب، فقد كانت تعتقد انه اجمل ما فيها، متجاهلة جمال عينيها الواسعتين البنفسجيتين.

ومرّة اخرى انّبت نفسها، عضت على شفتيها بمرارة، اهذا وقت التفكير بشعرها، بجمالها، برأي جيرد بشقتها، بها؟ ان أهم من هذا كله، اين اختها؟ أين فالنتينا؟ ولكن مع كل ما مرّ بها، عندما استلقت على سريرها، سرعان ما استغرقت في نوم عميق!

كان النور يغمر الغرفة عندما صحت كاترين في الصباح، والساعة تشير الى ما بعد التاسعة بقليل. لم يكن الوقت متأخراً بالنسبة اليها في يوم السبت، ومع ذلك غادرت الفراش، وألقت على كتفيها مئزر الصباح. أحست بالبرودة تتسلل الى اطرافها، فأدارت مفتاح التدفئة المركزية، ثم سحبت الستائر عن النوافذ، ووضعت ابريق الشاي على النار. أخذت الصحف اليومية من الصندوق المخصص لذلك، وفجاة خطرت فالنتينا ببالها. لماذا جاءت الى المنزل يوم امس. وما الذي كانت تبغيه من انتحال شخصيتها يا ترى؟

بالتفاتة لا ارادية نحو غرفة أبيها التي كانت تشغلها اختها بعد سفره، توجهت مباشرة اليها وفتحت الباب. كانت تتوقع ان تجد الغرفة قليلة الترتيب بعد زيارة اختها في اليوم السابق. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. فقد كانت الغرفة على حالها. الا ان هناك ما لفت انتباهها، سرت رعشة قلق في عروقها، فقد كانت طاولة الزينة خالية من كل ما كان عليها من عطور وأدوات تجميل. تقدمت مسرعة الى الداخل، فتحت الأدراج التي تضع فالنتينا فيها حاجياتها، واحداً تلو الآخر، ولكنها جميعها كانت فارغة. وبمعنى آخر فان كل الاغراض التي تخصّ اختها وكانت متبقية هناك، قد اختفت. ابتلعت كاترين ريقها وضبطت اعصابها، فتحت خزانة الملابس وكذلك لم تجد اثراً لثياب اختها.

اذن هذا هو سبب مجيء فالنتينا يوم أمس الى شقتها. وهذا ما كانت تفعله عند قدوم جيرد فريزر. ولا عجب انها كذبت عليه وخدعته. فقد كانت تخطط للرحيل.

ملأ الخوف قلبها، وارتجفت شفتاها بمرارة. ولكن لا بد وأن تكون فالنتينا قد تركت لها في مكان ما كلمة أو أي شيء آخر، تعلمها فيه الى اين

ذهبت، أو انها ستعود. ولكنها بحثت في جميع انحاء الشقة من دون ان تجد شيئاً ينبئها بذلك. فهزت كتفيها وقالت في نفسها، كم سيبدو اختفاؤها مريباً.

فجأة مرّت صورة جيرد فريزر في خيالها. ماذا سيفعل جيرد فريزر عندما يعلم بذلك؟ من الممكن ان يقدم شكوى ويطلب القبض عليها. يا لله كم تأزم الموقف.

هزت كاترين رأسها. كانت بعد ظهر أمس قد ظنت انه لا يمكن ان يكون هناك وضع أسوأ مما كانت فيه فالنتينا، عندما أخبرتها بالمصيبة التي وقعت على رأسها. ولكن ما بالها الآن، وقد زادت الأمور تعقيداً باختفائها؟ هذا الرجل جيرد فريزر لا يمكن ان يترك الأمور على حالها. لا بدّ انه سيزيد النار اشتعالاً. وهي ماذا بامكانها ان تفعل يا ترى؟

بينما كانت تتناول الشاي، قررت ان تتكلم مع سيمون. فلا بد ان تتحدث الى احد، الى اي انسان. وليس هناك شخص آخر يمكنها ان تفضي اليه بما في نفسها. سيمون سيسمع لها. سيمون سوف يقدر الأمور. انها لا تقدر ان تنتظر الى حين موعدها معه بعد الظهر. بل يجب ان تتحدث اليه الآن.

وضعت الهاتف امامها. رفعت السماعة وادارت القرص بأصابع مرتعشة، ولكنها اخطأت الرقم. واخطأت الرقم مراراً. وأخيراً وعندما ارتفعت السماعة في الجهة المقابلة كانت المتكلمة، السيدة ترافس، والدة سيمون ترافس.

ـ آه، سيدة ترافس، هل سيمون موجود؟ أريد ان اتحدث اليه، فالأمر هام جداً.

أجابتها السيدة ترافس باقتضاب:

ـ انه لم يستيقظ بعد. كان هذا الاسبوع شاقاً بالنسبة اليه، لكثرة ما كان لديه من اعمال. وأنا متأكدة ان الصبّي المسكين متعب جداً.

بدا القلق في صوت كاترين وهي تقول:

ـ حسناً، هل يمكن ان توقظيه يا سيدة ترافس. انا عادة لا ازعجك، ولكن الأمر الآن طارىء وهام.

ـ ماذا حصل؟ ربما استطيع المساعدة.

- لا، بل يجب ان أكلّم سيمون. أرجوك سيدة ترافس، اطلبي من سيمون ان يكلمني.

استسلمت السيدة ترافس، وقالت:

- حسناً، لا بدّ ان يكون الأمر هاماً. ليس بالسهل عليّ إيقاظه. لقد وعدني ان يغرس لي بعض الشجيرات في الحديقة هذا الصباح. وأنا لا أريد ان يؤخره أي شيء عن ذلك.

بدا لكاترين ان دهراً مرّ قبل ان يصل سيمون الى الهاتف ولم تعد تطيق صبراً. وأخيراً سمعت صوته:

- كاترين؟ قالت والدتي انك ألححت في طلبي. ما الخبر؟ ماذا هناك؟ ألست بخير؟

- أنا بخير سيمون. ولكن يجب ان أتحدث اليك. هل يمكنك ان تأتي اليّ الآن؟ أنا لا أعرف ماذا أصنع.

- كاترين ما الخبر يا حبيبتي؟ الا تستطيعين ان تخبريني على الهاتف؟

- لا. لا استطيع ان ابحث الامر عبر الهاتف. يجب ان تأتي يا سيمون. انا آسفة. أنا اعرف ان والدتك لا تحب ذلك. ولكن المسألة مهمة، ويجب ان أراك.

- ولكني سأراك بعد الظهر. الا تستطيعين الانتظار حتى ذلك الحين؟

- لا.

- كاترين!

- الا تجرؤ؟ قل ان عليك بعض الأعمال في الحديقة. الا تدرك يا سيمون، ان المسألة حياة أو موت. ماذا أقول كي تصدقني؟

أجابها سيمون وهو يحاول تهدئتها:

- حسناً. حسناً أنا قادم، وبسرعة. فقط أرجو أن تأخذي الامور ببساطة.

- ببساطة! حسناً، تعال بسرعة، بأسرع ما يمكنك.

وضعت السماعة مكانها، واعادت الهاتف الى موضعه، واخذت تسرع في ترتيب شقتها، ثم ارتدت ثيابها استعداداً لمقابلته، ولكنها اغفلت زينتها.

دخل سيمون منزلها بعد المكالمة بما يقرب الساعة وهو يقول:

- كاترين، قولي بسرعة ما بك. والدتي تنتظرني، وقد وعدتها ان أحضر لها معي بعض الخضار.

- الخضار!

هزت هذه الكلمات كاترين هزاً عنيفاً. ولكنها لم تقل شيئاً حتى دخلا غرفة الجلوس.

لم تستطع مقاومة الرغبة في المقارنة بين سيمون والرجل الذي كان في زيارتها ليلة أمس. لم يكن هناك وجه شبه بينهما. لقد كان شعر سيمون بني اللون مائلاً الى الحمرة، بينما كان شعر جيرد فريزر أسود حالك السواد. كانا يختلفان في وجوه عدة. ليس لديها من الوقت ان تذكر الآن جميع هذه الوجوه. فسيمون أمامها وهو يريد العودة بسرعة، وسألت نفسها: ترى ماذا يمكن ان يقول سيمون لو أخبرته بالمعاملة القاسية التي لقيتها على يد عمّ غلين؟

قطع سيمون حبل الصمت وقال:

- حسناً، أنا هنا. فما هو الأمر الطارىء الهام، الذي لا يمكن تأجيله حتى الساعة الثالثة؟ والساعة الآن هي الحادية عشرة.

ثم غيّر مجرى الحديث وأضاف:

- إني أشتمّ رائحة قهوة، هل يمكن ان أتناول فنجاناً؟

- هل تناولت فطورك؟ أنا متأكدة ان والدتك لا تسمح لك بالخروج من دون ذلك.

- لقد تناولت بعض الخبز والزبد ومربى التفاح. كاترين دعينا من ذلك الآن. ما الأمر؟ شعرت ان هنالك شيء ما ليلة أمس، ولكنك لم تبحثيه معي في حينه.

ذهبت كاترين الى المطبخ، واحضرت فنجانين من القهوة، وهي تفكّر. ماذا سيقول سيمون عندما تخبره بالأمر؟ كيف يمكن ان يعالج المشكلة؟ هل سيهدّد بالذهاب الى الشرطة؟ انها في الواقع لا تعرفه على حقيقته تماماً.

جلس سيمون بارتياح، وأخذ صحيفة يطالعها. وعندما دخلت بالقهوة، ترك الصحيفة جانباً، وأصغى اليها بجميع حواسه.

- انها فالنتينا يا سيمون، لقد اختفت.

- اختفت! ماذا تعنين، اختفت؟ هل اختطفت؟ أم هربت؟ ام ماذا؟

- لا ليس اختطافاً. لقد اخذت جميع حاجياتها التي كانت تحتفظ بها هنا. ولا أظن انها لو خطفت ينتظرها المختطفون لتجمع أغراضها.

قال سيمون صائحاً:

- وكنت تعرفين هذا في الليلة الماضية؟
- لا... بالطبع لا!
- اذن ما الذي كان يقلقك ليلة امس؟

وباختصار حكت له ما حدث مع فالنتينا مغفلة فقط انها كانت تقود السيارة.

عقّب سيمون بقوله:

- يا الهي، او تظنين انها هربت، مخافة ان تتورط في هذه المشكلة؟
- شيء من هذا القبيل.
- ولكن لم تكن غلطتها. لا أفهم لماذا أحست انها بحاجة الى الهرب.

عضت كاترين على شفتها وقالت:

- ربما هناك شيء أكثر من هذا.
- ولكن ما هو؟ انها بذلك تفسح مجالا للشك بأمرها. تشجّع الناس على الظن بأن هناك شيء تخفيه. وبالتأكيد فان الشرطة ستكتشف ذلك. انهم دائماً يفعلون.
- ربما كانت تقود السيارة، فماذا عن ذلك؟
- لا تكوني سخيفة. فالنتينا لا تعرف القيادة. وأنت على علم بذلك.
- الصغار يفعلون احياناً بعض الأمور الجنونية.
- ان فعلت فلن أكون الى جانبها. يا للسماء. معنى هذا أنها ستتهم بجريمة قتل غير مقصود، هذا اذا مات الشاب.

وتأكدت ان سيمون لا يمكن ان يساعدها في شيء. فالى من تلجأ يا ترى؟

رنّ جرس الباب، رفعت رأسها، وهي تتساءل من يكون الطارق؟ الشرطة؟ هل اكتشفت الشرطة ان اختها لم تكن تلك الليلة في بيت الممرضات؟ وجاؤوا يبحثون عنها.

نظر سيمون اليها باستغراب وقال:

- الا تريدين ان تفتحي الباب؟ ألم تسمعي رنين الجرس؟ ربما تكون

فالنتينا، فتزول جميع مخاوفك.

انها تعرف ان القادم لا يمكن ان يكون فالنتينا. ومع ذلك فهي لا تستطيع ان تتجاهل الطارق. وان فعلت، فسيمون سوف يفتح الباب، وكان قد وقف بالفعل غير صابر على ترددها.

بينما كانت كاترين تسير نحو الباب، كانت تفكر بما يمكن ان تقول. لا تستطيع ان تتظاهر انها لا تعرف شيئاً. فالنتينا اختفت، يجب ان تخبرهم بذلك. فماذا سيفعلون معها وهي ليس لها أية علاقة بالأمر؟

فتحت الباب. ارتجفت قدماها، شحب لونها. لم تكن هناك شرطة. كان يقف بالباب ذاك الرجل الطويل الأسمر، الذي أزعجها في الليلة السابقة. انه جيرد فريزر.

٣ـ وجهاً لوجه

ـ من؟ السيد فريزر!

تنفست بصعوبة وهي تلتفت خلفها خشية ان يكون سيمون سمعها وهي تلفظ اسم الزائر. أجابها جيرد فريزر بالمثل:

ـ آنسة مالوري، هل يمكنني الدخول؟ أنا بحاجة لأن أتحدث إليك مرة أخرى.

ـ مرة أخرى؟

ـ نعم مرة أخرى. أظن أنك تريدين ان تسمعي ما سأقوله لك.

لم تصدّق كاترين انها تستطيع أن تدخله بيتها بعد تصرفه القاسي معها في الليلة الماضية، ولكن جيرد فريزر كان شديد الثقة بنفسه، وجاء ليدخل. فكيف يمكنها الآن ان تقدمه الى سيمون، وهي لم تلمّح مطلقاً الى زيارته لها ليلة أمس؟

قالت بارتباك:

ـ هل يمكن أن تعود في وقت آخر؟ فانه من الصعب ان اتحدث إليك الآن.

ـ لماذا؟ هل فالنتينا هنا؟ هل هذا ما تريدين اخفاءه؟ فان وجودها يحل المشكلة.

دفعها جانباً ودخل. لم تستطع ان توقفه. ولم يكن بيدها ان تفعل شيئاً أكثر من أنها هزّت كتفيها عندما أغلقت الباب وأسرعت خلفه.

وقف جيرد في وسط غرفة الجلوس، وعندما لحقت به كان سيمون يقف ليواجه الرجل الطويل القادم. وشعرت برغبة في الضحك من الامارات

التي بدت على وجه كل منهما. فعلى وجه سيمون بدت علامات السخط والتهديد، أما على وجه جيرد فريزر فقد بدت امارات العداء والارتياب.

ـ ما الذي يجري هنا؟

كان سيمون هو الذي تكلم.

أجابت كاترين:

ـ هذا عم غلين يا سيمون. انت تعرف من هو غلين، صديق فالنتينا، وقد جاء الى هنا بسبب الحادثة.

ـ أين اختك؟

سألها جيرد، ولم يكن بحالة تسمح له بالانتظار، حتى يتمّ التعارف بينه وبين سيمون، ألقى نظرة سريعة على المطبخ، وحين سمع احتجاجها وقف يجيبها.

تركت سيمون ينتظر التفسير عن هذا المسلك، وقالت مسرعة:

ـ سيد فريزر، أنا أخبرتك الليلة الماضية، انني لا أعرف مكان أختي. وان كنت تريد ان تعرف شيئاً أكثر من ذلك، فلتعلم ان ملابسها قد اختفت أيضاً.

ـ كاترين . . .

حاول سيمون التدخل، ولكن جيرد لم يترك له مجالا لذلك، وقال:

ـ تعنين أنها هربت، هذا لا يدهشني. أظن انك كنت تعرفين طيلة الوقت انها كانت تقود السيارة.

تقدم سيمون خطوة الى الأمام، وأمسك بيد كاترين وهو يقول:

ـ لا تتكلم بهذا الاسلوب غير الاخلاقي. فالنتينا لا تستطيع ان تقود سيارة، ولم تفعل ذلك من قبل. سيد فريزر ليس من حقك ان تتهم فتاة بريئة، بسبب ما أصاب ابن اخيك.

تجاهل جيرد كلام سيمون، وقال:

ـ دعينا لا ندخل في نقاش بلا طائل، آنسة مالوري. شقيقتك كانت تقود السيارة. ولا شك عندي ان الشرطة ستبرهن عن ذلك. ولكن ليس هذا هو المهم الآن. لقد صحا غلين من غيبوبته وهو يسأل عن اختك.

تمتمت كاترين وهي تضع يديها على خديها:

ـ آه!

ـ هل انت حقاً لا تعرفين اين هي؟
ـ لا. أتمنى لو أني اعرف.
وبعد لحظات من التفكير بدا على جيرد انه وصل الى قرار وقال:
ـ اذن يجب ان تقومي بدورها بدلا منها.
ـ أفعل؟ أفعل ماذا؟
قال جيرد بصراحة:
ـ تتظاهرين أنك فالنتينا.
ـ الآن أنظر هنا...
ومرة أخرى حاول سيمون التدخل. ولكن في هذه المرة كاترين هي التي اوقفته عن الكلام وقالت:
ـ لا أستطيع أن أفعل ذلك. غلين سيعرف انني لست فالنتينا.
ـ ليس بالضرورة، فعلى ما أذكر انتما متشابهتان في المظهر.
ـ ولكن غلين...
ـ غلين، يبدو ان الصدمة أثرت على بصره، حتى انه لم يستطع ان يميّزني.
ـ اثرت على بصره. لكن....
لم يترك جيرد لها مجالا للمتابعة وقال:
ـ اما الأصوات، فالمرء أحياناً لا يصغي اليها، بقدر مَا يصغي الى المتكلم. هل فهمتني؟ وفي أية حال صوتك ليس مختلفاً كثيراً عن صوت فالنتينا. واذا تظاهرت انك هي، فسوف يصدقك حتماً.
وبصعوبة استطاعت كاترين ان تفتح شفتيها تريد ان تتكلم وهي تنظر الى سيمون، لكن ما باليد حيلة، ووجّه سيمون كلامه الى جيرد متجاهلا نظرات كاترين:
ـ لماذا لا تخبر ابن أخيك الحقيقة؟ فهو بلا شك سيعرفها ان عاجلاً ام آجلاً.
تجاهل جيرد كلام سيمون، وهزّ كتفيه قائلا:
ـ احضري معطفك يا آنسة مالوري. وأنا سأوصلك الى المشفى. أنا متأكد انك ستفعلين ما بوسعك لتساعدي على شفاء غلين.
صاح سيمون محاولا ان يثنيها عن عزمها:

ـ كاترين، انتظري...
ولكنها اجابت:
ـ سيمون، يجب أن أفعل ذلك. ألا تدرك؟ انها ليست غلطة غلين اذا هربت فالنتينا منه.
ـ وليست غلطتك أيضاً.
ولما وجد ان كاترين لم تلتفت الى اعتراضه، تابع قائلا:
ـ حسناً، سأوصلك بنفسي الى المشفى. وهكذا أكون هناك اذا حاول احد ان...
قاطعه جيرد وهو يقف قرب الباب:
ـ لا، ليس هذا ضرورياً سيد...
قال سيمون باقتضاب:
ـ ترافس.
ـ حسناً، سيد ترافس، يمكنك ان تنتظرنا هنا، وسوف اعيدها سالمة فلا تقلق.
قالت كاترين وهي تعود إليها وقد وضعت معطفاً على كتفيها:
ـ سيمون، أظن من الأفضل ان تذهب الى البيت. وسوف أتصل بك عندما أعود. اني آسفة، ولكن ليس هناك حلّ آخر.
احمرّ وجه سيمون من الغضب وقال:
ـ لماذا لم تخبريني ان جيرد كان هنا في الليلة الماضية؟ حتى وفي هذا الصباح جعلتني أظن ان ما يقلقك هو ما قالته فالنتينا لك.
ـ ان الامر...
ولكن جيرد كان يستعجلها وهو يدفعها نحو الباب، فلم تجد مجالا لتشرح له أي شيء. واكتفت بأن قالت:
ـ سوف أراك فيما بعد.
نظر سيمون بحقد الى جيرد وهما يأخذان المصعد. وهناك أمام البناء مضى سيمون غاضباً الى سيارته، تاركاً جيرد يصطحب كاترين في المرسيدس.
فتح جيرد باب السيارة لتدخل كاترين. وعندما جلس الى جانبها وحرك مقود السيارة قال:

- فالنتينا كانت تقود سيارة غلين، أليس كذلك؟ لا شك أنها أخبرتك. ألم تفعل؟ وهذا سبب خوفك عندما ذكرت أنها كانت معه عند وقوع الحادث.

أخذت كاترين نفساً عميقاً:

- لماذا؟ لماذا تظن ذلك؟

أجاب بصوت يدل على نفاد الصبر:

- لماذا؟ آنسة مالوري. . . آه، ما هذا العذاب. . . كاترين. أنا لا أستطيع ان استمر في ندائك - آنسة مالوري - الجميع يظنون ان اصاباته لا تدلّ على انه كان وراء المقود.

- الشرطة قالت ذلك؟

- لا، ليس بعد. ولكنهم سيفعلون. انه طبيب غلين الذي ابدى رأيه. وانا أتفق معه في ذلك.

تنفست كاترين بصعوبة وقالت:

- هل سيكون غلين بخير؟ أعني بعد أن عاد إليه وعيه.

- اننا نامل ذلك.

- هل اصابته في رأسه خطرة؟

- جروح عديدة مزقت وجهه. ولكن الاطباء قالوا انها ستشفى، بالاضافة الى فقدان البصر، واشتباه في وجود ارتجاج في الدماغ.

- ماذا لو اكتشف اني كاذبة؟

- لماذا سيكتشف؟ اختك اخبرتني انك لم تلتق بابن اخي ابداً. هل التقيت به؟

- لا.

- وهكذا، فان غلين ليس لديه شيء يبني عليه ارتيابه.

تطلعت كاترين بقلق من نافذة السيارة، وهي تفكر في اختها. وأين يمكن ان تكون الآن، والى متى تستطيع ان تبقى بلا معين. وتفكر أيضاً في نفسها، الى متى يمكنها ان تتخلص من اسئلة جيرد فريزر.

مرّت ساعة من الزمن حتى وصلا الى المشفى، حيث كان غلين. وكان الوقت بعد الواحدة بقليل، عندما سارت في ممرّ طويل مفروش برقائق من المطاط يحول دون حدوث أي صوت، يؤدي الى وحدة العناية المشددة.

كان يسود المكان جوّ من الهدوء والنظافة والنظام. كما يبدو على المسؤولين فيه من أطباء وممرضات امارات المهارة والفعالية، والكفاءة. وأمام كل هذا تملك كاترين شعوراً بالاطمئنان، وجعلها تؤمن أنه ان كان هناك من يستطيع ان يساعد غلين على الشفاء، فانهم هؤلاء الاشخاص. وامتلأ قلبها بالأمل ليس من اجله فقط، وانما من اجل فالنتينا أيضاً.

حيّت الممرضة المناوبة جيرد فريزر بحرارة، مما دلّ على انه اصبح زائراً معروفاً. وقدّم لها كاترين. فابتسمت لها الممرضة هاريس، وقد عرفت انها الفتاة التي سأل عنها غلين.

كان غلين فريزر مستلقياً بهدوء على سرير ضيق، ووجهه أبيض كلون الوسادة التي وراء رأسه. امسكت كاترين انفاسها عندما رأت الضمادات تحيط برأسه. وأنابيب تتعلق بأنفه واخرى برسغه. لقد حزّ في نفسها كثيراً مرآه على هذه الحال عاجزاً لا حول له.

تقدمتها الممرضة هاريس، وصرفت الممرضة الشابة التي كانت تجلس بجوار سرير غلين. وانحنت حتى اقتربت كثيراً من مريضها وقالت:

- سيد غلين، هل انت مستيقظ؟ لديك زائر.

- من؟ فالنتينا!

دبّت الحياة في قسمات الوجه المضمّد، اما كاترين فقد أمسكت انفاسها عندما فتح عينيه. لم تكن عيناه سوداوين مثل عيني عمه، بل زرقاوين صافيتين. وعندما تحولتا نحوها، فقدت كاترين أعصابها.

وردد غلين ثانية:

- فالنتينا. أين انت؟ أيتها الممرضة قلت أن لدي زائر. . .

فأجابت الممرضة هاريس وهي تدفع كاترين الى الامام:

- لا تتعب نفسك سيد غلين. الآنسة مالوري هنا، تماماً بجانبي. أعطني يدك.

فتناولت يده وشبكتها بأصابع كاترين المتجمدة وهي تتابع:

- والآن هل صدقتني؟

- آه، فالنتينا. . .

اضطرب صوت غلين. اما كاترين فغاصت في الكرسيّ الذي اخلته الممرضة، وبللت شفتيها بلسانها، وقالت:

- ها... هالو غلين.

خرجت الكلمات القليلة من فمها متقطعة، وهو يرفع يدها الى شفتيه. وتابعت:

- كيف... كيف تشعر الآن؟

- أنا بخير.

شعرت كاترين بارتياح عندما ادركت انه صدّق انها فالنتينا. أما غلين فقد تابع كلامه:

- كيف حالك؟ لم تصابي بأذى، أليس كذلك؟ يا الله. عندما لم أجدك حينما استيقظت، ظننت انك...

تلفتت كاترين حولها تستنجد بجيرد فريزر، فتقدم الى الامام قائلا بصوت مليء بالبشر والبهجة:

- كنت في غيبوبة مدة تزيد عن الأربع وعشرين ساعة، أيها الرفيق القديم. وانت لا ترضى ان تجلس فالنتينا طيلة هذا الوقت بجانبك، فهي ايضاً تحتاج الى نوم وراحة، أليس كذلك؟

- أنا اعلم.

قال ذلك، وحول نظره مرة اخرى نحو كاترين، وهو يبدو اكثر ابتهاجاً بها من ابتهاجه بعمّه في تلك الأونة. اما هي فقد كانت تراقب عينيه المضيئتين وتعجب كيف ينظر اليها دون أن يراها.

وتابع غلين كلامه بقوله:

- هل انت متأكدة انك بخير؟ كيف ابدو؟ هل اخبروك عن عيني؟ فالنتينا. انا لا ارى جيداً.

أجابت كاترين بصوت مبحوح:

- انت... أنت تبدو بحالة حسنة. وأنا متأكدة ان المسألة تحتاج الى وقت ويعود اليك بصرك.

- الا ابدو عجيب الخلقة؟

- لا. بالتأكيد لا.

كانت الممرضة هاريس قد خرجت لبعض الوقت ثم عادت قائلة:

- سيد غلين، حان وقت راحتك. والآنسة مالوري تستطيع العودة فيما بعد اذا ارادت. اما الآن فعليها ان تذهب.

اعترض غلين على ذلك، ولكن الممرضة هاريس أصرّت. وجيرد أكد لابن اخيه ان فالنتينا لن تكون بعيدة عنه.

تلوى غلين ببطء تحت الغطاء الخفيف قائلا:

- لن تذهبي بعيداً يا فالنتينا، أليس كذلك؟ أعني انك لن تتركي المشفى؟

- أنا.. لا.. لا لن أذهب بعيداً. سوف أراك فيما بعد.

وعندما أصبحا في الممرّ ثانية، نظرت كاترين الى جيرد نظرة لطيفة تخفي فيها استياءها وقالت:

- كيف يمكنني ان أبقى في المشفى؟ لدي بعض المواعيد الخاصة.

- إذن اقترح، ان تحاولي جاهدة وتعملي على ايجاد فالنتينا. أما الآن، فدعينا نتناول بعض الطعام، في الجهة المقابلة يوجد مطعم صغير.

قال ذلك وهو يسير الى جانبها متجهين نحو المصعد. قلبت كاترين شفتيها، والمصعد الضخم يهبط بهما الى الطابق الأرضي، وهي تخاطب نفسها: «لا شك ان ما يقوله جيرد صحيح. يجب ان تظهر فالنتينا. وعندئذ فعليها ان تواجه مشاكلها بنفسها».

دخلا المطعم الصغير، وجلسا. طلبا كأسين من عصير الليمون، وبعض الخبز والجبن.

لم يكفّ جيرد عن الحديث في الموضوع نفسه، حتى وهما يتناولان طعامهما فقال:

- لتشكر فالنتينا حظها، فقد وجدت من يتحمّل المسؤولية بدلا منها.

- هل أنت حقاً متأكد، انها هي التي كانت تقود السيارة؟

- وانت ألست متأكدة، ايضاً؟

- حسناً، هل سيلقى القبض عليها؟

- هذا يتوقف على...

- يتوقف على ماذا؟

- هذا اذا وجّه غلين اتهاماً ضدها.

- ولكن الشرطة...

- الشرطة؟ أظن انهم لن يفعلوا شيئاً، الا اذا أراد غلين ان يورط اختك. وبما يبدو انه لا يريد ان يفعل ذلك.

قالت كاترين والقلق يبدو في كل كلمة من كلماتها:

- لكنه سيفعل، سيفعل عندما يجد ان فالنتينا تركته ومضت. . .
- كيف سيكتشف ذلك الآن؟ أتظنين ان لدي استعداداً لأن أعيق شفاءه بكشف الحقيقة؟
- هل تعني انك لا زلت موافقاً على علاقته بشقيقتي ومستقبلهما المشترك؟
بانت القسوة في عيني جيرد وهو يقول:
- كيف تريدين مني أن أوافق على ذلك بعد هذه الطريقة الشائنة التي تصرفت بها أختك؟ تلك الطريقة التي لا تقلّ عن الجريمة، وهي في نظري تستحق كل ما سيجري لها. لكن حتى يصبح غلين قوياً بما فيه الكفاية ليسمع الحقيقة. أعني حتى يشفى تماماً. حتى ذلك الحين أريد ان تبقى الحقيقة مكتومة.
قالت كاترين في نفسها، كل شيء حتى الآن يسير سيراً حسناً. لكن ماذا سيجري اذا لم تعد فالنتينا؟ وماذا لو ان غلين لم يستردّ بصره؟ لا شك عندئذ لا يمكن لجيرد ان يستبقيها لتمثل دور شقيقتها الى ما شاء الله.
تابع جيرد كلامه وهو يتناول بقية شرابه:
- أما الآن فقد مرّت اعقد مشكلة في القضية، هي ان غلين قبلك على انك فالنتينا. وهكذا فسيتوقف عن سؤاله عنها.
قالت كاترين وهي تنظر الى ساعة يدها:
- لكني لا أستطيع ان أستمرّ بالتظاهر على انني فالنتينا. والآن انا أعتذر، لقد بلغت الساعة الثانية والنصف، ويجب عليّ ان أذهب. وعدت سيمون ان ألقاه في الثالثة.
ولكن جيرد قال وكأنه يقرر حقيقة:
- حسناً، أنا آسف، فلا يمكنك ان تذهبي. والأفضل ان تتصلي به هاتفياً، لاخباره أنك ستكلمينه فيما بعد. واذا لم يرض بذلك، فما عليك الا أن تلومي أختك.
نظرت كاترين اليه بازدراء وقالت:
- ارجوك ان تهتم بما يخصك فقط، ولا تهتم بي مطلقاً.
- ماذا تعنين؟
- أنت تعرف ما أعني.
- ما أعرفه هو ان والدة غلين تنتظر بفارغ الصبر خبراً عن ولدها،

وحيدها. وأنا على استعداد ان أقوم بكل ما يمكن لئلا تكون تعيسة.
رفعت كاترين رأسها وقالت:
- حتى ولو دمّرت أي انسان آخر في سبيل تحقيق ذلك؟
- أنا لا أدمرك يا كاترين، صدقيني. لقد صبرت عليك كثيراً. ولكن. . . فان العواقب لن تسرّك.
- هل تهددني يا سيد جيرد فريزر؟
نظر في عينيها القلقتين وقال:
- أهددك؟ أنت اذن لا تفهمين معنى كلماتي. واسمي - جيرد - فقط ناديني به. لأني لا أظن أن فالنتينا متمسكة بالشكليات الى هذا الحد.
قالت كاترين في نفسها، ولا هي يجب أن تتمسك بالشكليات خصوصاً انها تحلّ محلّ اختها. ولو كانت فالنتينا هنا الآن، فلا شك انها ستجد العمّ أكثر جاذبية من ابن اخيه. ولا تدري كيف كانت ستتصرف معه. وتساءلت هل هو متزوج يا ترى؟ واذا كان كذلك، فما رأي زوجته في اهتمامه الزائد بأرملة أخيه؟ لتترك الظنون جانباً الآن وتفكر في مشكلتها فانها اذا زادت الأمور تعقيداً سيزيد عناد جيرد ويرغمها على الرضوخ لارادته. قال فجأة:
- أخبريني هل ستتزوجين سيمون هذا؟ وهل ذلك هو سبب تلهفك لاسترضائه؟
أفاقها كلام جيرد من شرودها، وسرّها انه لا يستطيع ان يقرأ افكارها. وأجابت:
- لا أعرف. ولا أظن ان هذا الأمر يعنيك في شيء يا سيد جيرد. من أختار كشريك لحياتي أمر يخصني وحدي.
قال بصراحة:
- هذا يعني انك لست متأكدة من مشاعرك نحوه. وأنا لا أصدّق انه لم يسألك رأيك في هذا الموضوع.
- حسناً يا جيرد، لا أرى علاقتي بسيمون تخصّك من أية ناحية. أنا لم أسألك مطلقاً أية اسئلة شخصية. فلماذا تفعل انت؟
- لا يوجد عندي شيء اخفيه.
- ولا أنا أيضاً، وكل ما في الأمر، اني أجد انه من غير المناسب ان تتدخل

في حياتي الشخصية.
ـ قد يكون الحقّ معك. واذا كنت لا ترغبين في الحديث عن نفسك، حدثيني عن سيمون، ما هو عمله مثلاً؟ هل هو موظف حكومي؟ هذا ما يبدو عليه.
ـ انه مدرّس. وعليك الاّ تحكم على الناس من مظهرهم.
قال جيرد ببرود:
ـ هذا صحيح، وللتأكيد، فانك تبدين وشعرك مسدول على كتفيك كأنك الأخت الصغرى، لولا أني أعرف الواقع.
ومن غير ان تدري ما كانت تفعل، ارتفعت يدها الى شعرها، وأخرجت منه الدبابيس وتركته ينساب على ظهرها وكالهالة يحيط بوجهها. ونظرت في عينيه، وقالت:
ـ انت تتلاعب بالوقت يا سيد جيرد. انت تعرف اين يجب ان اكون الآن. أليس كذلك؟
قال جيرد بجفاء وهو ينظر اليها:
ـ انه استنتاج يدلّ على الفطنة.
ـ أريد ان أذهب.
وضع جيرد يده على كتفها يستبقيها، وقال:
ـ لا، ليس الآن. سوف أشرح الأمر لخطيبك فيما بعد.
ـ انه ليس خطيبي.
اوضحت كاترين ذلك بصوت صارخ، وقد نفد صبرها. ولكنها تمنّت لو كان صوتها اكثر رقة، وأقل عنفاً. وتابعت:
ـ ما الذي يجعلك تظنّ انه سيقبل هذا العذر منك، اكثر مما يقبله مني؟
ـ لأنني استطيع ان اكون اكثر منك اقناعاً. ما هو رقم هاتفه؟ أم تريدين مني ان اجده في الدليل؟
ادركت كاترين انه لا يمكنها ان تصل الى بيت سيمون في الموعد المحدد. ولا بد من الاتصال به هاتفياً. قالت وهي تقف:
ـ سأخبره اني سأراه في المساء. لا أظن ان لديك اعتراض على ذلك.
وسارعت الى الهاتف قبل ان يعترض على شيء، علماً منها انه اذا احتاج غلين اليها في المساء فسوف تستجيب له.

وكما توقعت، فان سيمون رفض بشدة ان تكون هي كبش الفداء بسبب فعلة اختها الرهيبة. ثم قال لها:
ـ أظن اننا كنا سنذهب الى المعرض بعد ظهر اليوم، الا اذا كنت قد نسيت ذلك. ماذا تريدين ان أفعل الآن؟ هل اذهب وحدي؟
ـ كان ذلك الترتيب مؤقتاً يا سيمون. ولم نتفق عليه بصورة نهائية. لأني سأكون بعد الظهر منهمكة بشراء بعض المواد الغذائية لكافة أيام الأسبوع لأنه لم يعد لدي شيء من المؤن. واذا عادت فالنتينا...
قاطعها سيمون:
ـ اذا عادت فالنتينا. انتظري حتى تري ماذا سأفعل عندما أرى تلك الآنسة الشابة فاني سوف أهزّها هزاً.
ـ ألسنا كلنا نريد ذلك.
جاءها صوت جيرد من خلفها، فاستدارت مرتعشة لتجده متكئاً على الحائط بجانبها، يستمع الى مكالمتها. نظرت اليه نظرة لوم على انصاته لما يدور بينها وبين سيمون من حديث أما سيمون فقد تابع حديثه قائلا:
ـ في أي حال، لا أريدك ان تنشئي صداقة مع جيرد. والأفضل ان آتي وأبقى معك، فأرى ما يجري هناك على الأقل.
ـ لا تفعل ذلك يا سيمون. سآتي بأسرع وقت ممكن، ولا تخف عليّ.
وعندما وضعت سماعة الهاتف مكانها، قالت بصوت مرتفع:
ـ كيف تجرؤ على الاستماع الى المكالمات الخاصة؟ ألست خجلا من نفسك؟
ابتعد جيرد قليلا عن الحائط قائلا:
ـ لا تجعلي من الموقف مأساة. فان سيمون سوف يتغلب على كبريائه. واذا كان كل ما يفكر ان يفعله مع أختك هو ان يهزها هزاً، فلم اعد قلقاً من أية عقوبة سيفرضها عليك.
ـ لا تخرج عن الموضوع، ليس لك الحق ان تنصت الى حديثنا.
ـ ليس لي الحق، ولكني فعلت. والآن انسي الموضوع، ودعينا نتناول كأسا آخر.
ـ لست عطشى. ومن الأفضل ان نعود الى غلين، اتحدث اليه قليلا، ثم اذهب الى البيت.

- كما تشائين.
عندما دخلا غرفة غلين، وجداه لا يزال نائماً. فقالت الممرضة هاريس لكاترين:
- بدا أكثر هدوءاً بعد زيارتك يا آنسة فالنتينا. فهو نائم بسلام الآن. ولكنك تستطيعين الجلوس الى جانبه ان اردت. أنا متأكدة انه سيكون سعيداً لوجودك عندما يستيقظ.
وافقت كاترين على ذلك. أما جيرد فقال ان غلين لن يكون بحاجة لكليهما. وأنه سيذهب الى الفندق ليتصل بوالدة غلين من هناك. وطلب من كاترين ان تتصل به اذا دعت الضرورة لذلك. ثم غادر المكان.
كان الوقت يمرّ بطيئاً، وهي تجلس صامتة بجواره. وقالت في نفسها، لو انها كانت خطيبة غلين، او صديقته، أو على الأقل تعرفه من قبل، لكان هذا الوقت الذي يمرّ بها وهي تراقبه نائماً، وقت راحة بالنسبة اليها، اما وانه شاب غريب، فقد تسرّب الضجر اليها، واحست بالخوف اذ مرّ في ذهنها انه قد يكتشف حقيقتها عندما يستيقظ، فقد يستطيع ذلك بطرق عدة. صوتها، مظهرها، تصرفاتها. عليه فقط ان يمدّ يده الى شعرها حتى يعرف انها ليست فالنتينا.
وفي أية حال فالنتينا لن تبقى مختفية الى الأبد. وعندما تعود... ولما بلغت هذه النقطة، لم تعد لديها الرغبة في التفكير بما سيحدث عند عودة أختها. على فالنتينا عندئذ ان تواجه جيرد وكذلك ابن اخيه.
في الخامسة قدمت لها احدى الممرضات كوباً من الشاي. فأخذته شاكرة مسرورة به. كانت تحتاج الى شيء ما تتسلى به ليمرّ هذا الانتظار الممل. وأخذت تشرب الشاي على مهل. وهي تنظر الى عيني غلين المغمضتين، وجروحه العميقة التي سببتها شظايا زجاج السيارة المهشم. وعجبت من جديد، كيف استطاعت فالنتينا أن تهجره. ترى الا تريد ان تعلم ما حلّ به؟ الا يهمها ان تعرف اذا كان لا يزال على قيد الحياة؟ ام ان المهم بالنسبة اليها ان تنقذ نفسها. وليكن بعد ذلك ما يكون.
اقتربت من غلين اكثر وامعنت النظر في ملامح وجهه، وفجأة تراءى لها وجه جيرد، كان الشبه بين العم وابن اخيه طفيفاً. فقد كان وجه جيرد يدل على العزيمة والقوة، بينما كان وجه غلين أكثر رقة وضعفاً. ولم تنكر بينها

وبين نفسها ان غلين وسيم الطلعة بالرغم من الجروح التي تحيط بعينيه المغمضتين. أما من حيث الطول فقد بدا وهو ملقى على فراشه انه ليس أقصر من عمه الا بشيء قليل.
عادت الى مقعدها، وحاولت الاّ تفكر بجيرد، ولكن هذا لم يكن سهلاً عليها. وساءلت نفسها، ترى ماذا قال لوالدة غلين؟ هل شرح لها الحالة كما هي؟ هل اخبرها عن اختفاء فالنتينا؟ ام انه اخفى هذه الحقيقة كما فعل مع غلين؟ اذا كان ضميره لم يؤنبه على خداع ابن اخيه، ووجد لذلك مبرراً، فلماذا لا يخدع ارملة اخيه؟ وهو يستطيع ان يسكت هذا الضمير، على ما يبدو، مدعياً ان لا فائدة ترجى من ازعاجها بلا سبب.
نظرت الى ساعتها مرة اخرى، وكانت تشير الى السابعة. ترى كم من الوقت ستبقى هنا؟ وكم من الوقت سينام غلين أكثر من ذلك؟ حتى ولو كانت هي صديقته، وهو فارس احلامها فلا أحد يتوقع منها ان تجلس الى جانبه طيلة هذا الوقت.
اخذت تفكر في طول غياب جيرد فريزر، شعرت بالدم يجري حاراً في عروقها. أين يقضي جيرد وقته الآن؟ فهو لم يشأ ان يضيّع وقته جالساً بالقرب من ابن اخيه. ولا شك انه الآن في الفندق يستريح، ويتمتع بالمناظر الاخاذة التي تحيطه خصوصاً وان هناك من يجلس الى جانب غلين طالما ان كاترين موجودة لتمثل له القصة التي اختلقها.
حركة عند الباب أبعدت عنها افكارها، فالتفتت لترى جيرد يدخل ثم يغلق الباب بهدوء خلفه. حياها في لطف، ثم سألها ان كان قد طرأ تغيير على حالة غلين. اخبرته ان لا تغيير هناك. وأضافت:
- جميل منك ان تعود.
وقف جيرد بجانب فراش غلين واخذ ينظر اليه. ثم التفت اليها وأجاب:
- آسف على تأخري. ليزا لم تكن في البيت عندما اتصلت بها في المرة الاولى. ولم اتمكن من الاتصال بها حتى موعد الغداء.
- موعد الغداء؟
نظرت كاترين الى ساعتها وكانت قد قاربت السابعة والنصف. واما جيرد فقد هزّ كتفيه، وهو يدور حول سرير غلين الى حيث كانت تجلس

وقال:

- الوقت الآن هو بعد الظهر بقليل في بلدتنا.

واخذ يحدثها عن بلدته، عن بيته. ولكن كاترين رفضت ان تدخل في مثل هذا الحديث وصاحت غاضبة:

- كم ساعة تتوقع مني ان أبقى جالسة هنا يا سيّد جيرد؟ أنا بالحقيقة اضيّع وقتي.

- انت قلت انك ستبقين حتى يستيقظ غلين. وأنا لا أعرف كم يطول ذلك.

- ولكن من الممكن ان ينام طول الليل.

- أخشى ذلك... يا فالنتينا.

احنت رأسها وقالت متجاهلة نظراته:

- أنا متعبة، وأريد أن اذهب الى الحمام لأغسل وجهي.

- تجدين الحمام تحت الممر تماماً، عودي بسرعة.

وعندما عادت وجدت جيرد جالساً على الكرسي الذي كانت تشغله. ولكنه هبّ واقفاً وسار نحوها قائلاً بصوت منخفض:

- ممرضة الليل كانت هنا منذ لحظة، وفي رأيها، انه من الممكن أن ينام غلين ثلاث أو أربع ساعات اخرى. وهي تقترح أن أصحبك لتاكلي بعض الطعام، ثم نعود.

صاحت كاترين:

- لا أستطيع أن افعل ذلك.

قال جيرد بصراحة:

- أخشى انك ستفعلين ما أقول...

- ولكن سيمون؟

رفع جيرد اصبعه الى فمه، مشيراً باليد الأخرى الى الرجل الذي في الفراش. مما اضطر كاترين ان تتوقف عن اتمام ما كانت تريد أن تقول. ثم قال:

- يوم واحد يا كاترين. اكثير ان اطلبه منه؟

هزت رأسها دلالة على القبول وقالت:

- لكنني لا استطيع أن أخرج معك بهذا الهندام...

تململ جيرد يريد ان يعترض ولكنها لم تترك له مجالا وتابعت كلامها:

- سأذهب الى المنزل، اغتسل وأبدل ثيابي ثم أعود. وطالما انت هنا فان غلين لن يحتاج الي.

هز جيرد رأسه وقال:

- سآتي معك، وانتظرك، ثم أعود بك، من اجل السرعة فقط.

بصعوبة استطاعت كاترين ان تخفض صوتها وهي تقول:

- ماذا تعني؟ انت لا تثق بي ولا تصدق اني ساعود. أنا لا اكذب يا سيد جيرد.

غمغم بخشونة:

- بحق السماء، كفي عن مناداتي سيّد... قولي جيرد فقط. واني آت معك مهما كان رأيك. أنا لا أريد ان يغيّر سيمون خططيّ ويهدم ما بنيت، ويجعلك تتجاهلين الفكرة من أساسها.

- ولكنه لا يستطيع ان يفعل ذلك.

- لا يستطيع؟ ومع ذلك اني آت معك.

ترك غلين بين أيدي ممرضة قديرة... قالت:

- لا تقلقي يا آنسة. ساعتني به. تمتعي بفترة من الراحة، يبدو عليك انك بحاجة الى ذلك.

بينما كانا يسيران نحو المصعد قال جيرد:

- انت تلعبين دورك باتقان، حتى انني كدت انا نفسي أصدق انك تهتمين بغلين.

- أنا اهتمّ فعلا. كما اهتم بأي انسان في مثل وضعه.

- الى أي حد؟ اني لأعجب.

وعندما وصلا الى العمارة حيث تسكن، لم تجد اثراً لسيارة سيمون في المرآب. فأحست بانها تخلصت من مأزق حرج. وقالت في نفسها، لا شك انه ينتظر مكالمة منها حسب وعدها. فاذن عليها ان تتصل به ثانية. وتمنت لو انه يقدر الوضع الذي وقعت فيه ويفهمه على حقيقته. في أية حال احست أنها مذنبة بحقه.

نزلت من السيارة، وكان المساء بارداً جداً فاسرعت تدخل المبنى الى المصعد، ظناً منها ان جيرد سينتظرها في السيارة. ولكن يبدو ان هذا لم يكن

رأيه، بل كان وراءها مباشرة. ولما توقف المصعد في الطابق السادس، سارت في الممرّ تبحث عن المفتاح في حقيبتها. ولما فتحت الباب كادت تتعثر بشيء فانحنت لتلتقط الظرف الذي وجدته ملقى هناك. وتطلعت الى جيرد مدهوشة تبحث عن تفسير لذلك. اخذ قلبها يخفق بشدة، وساءلت نفسها، ترى ممن هذه البرقية؟

اغلق جيرد الباب واتكأ عليه سائلا:

ـ الا تريدين ان تفتحي الظرف؟

قلبت الظرف بين يديها بأعصاب مشدودة، في انتظار معرفة ما يمكن ان يحمله في طياته.

خيّم الصمت عليهما بضع لحظات، اقترح جيرد بعدها ان يفتح الظرف بدلا منها. ولكنها هزت رأسها بالنفي، والحقيقة انها كانت تدرك ما يمكن ان يحويه هذا الظرف.

ابتعدت عن جيرد وتقدمته في المدخل حيث انارت المكان وبيدين مرتعشتين فتحت الظرف واخرجت منه الورقة الوحيدة. كانت برقية مختصرة جداً وبسيطة جداً. كانت من فالنتينا كما توقعت:

ـ ذهبت الى جوبورغ، لا تقلقي. والدي سيحتني بي. فالنتينا.

٤ ـ القرار الصعب

تناول جيرد البرقية من يد كاترين، بينما كانت تلقي بنفسها على الاريكة بعينين شاردتين. لم تكن هناك حاجة لاخفاء الحقيقة عنه. خصوصاً وهي متأكدة انه سيعرفها حتماً.

قرأ جيرد البرقية وقال بهدوء:

ـ كنت اظن ان اباك يعيش في جوهانسبورج.

ـ انه يعمل هناك بالفعل ولكنه لم يسبق ان دعا اياً منا للحاق به.

ـ لا اظن ان فالنتينا يهمها ذلك. المهم عندها ان تنفذ بجلدها فقط. اما ان يعيش غلين او يموت، فهذا امر القت به بعيداً عن ذهنها. لست ادري كيف كانت تدعي حبه، وهي لم تنتظر على الاقل لتعرف ما سيؤول اليه امره.

هزت كاترين رأسها وهي تحس بالالم يعصر قلبها. كيف استطاعت فالنتينا ان تتصرف مثل هذا التصرف؟ تترك غلين بين الموت والحياة، وتتركها هي تتحمل نتائج اعمالها الطائشة.

القى جيرد البرقية على الطاولة ثم اضاف:

ـ حسناً، على الاقل قد عرفت الآن الى اين ذهبت اختك.

لم تعد كاترين قادرة على التفكير واجابت مترددة:

ـ نعم. . . ماذا سيحدث الآن؟

ـ تبدين مرهقة الأعصاب جداً. دعيني انا افكر بالأمر، واذهبي هيئي نفسك للعودة. هل لديك قهوة؟

ـ نعم.

- اذهبي وجهزي نفسك. وانا سأحضر القهوة.

وقفت كاترين لحظة وهي مذهولة، لا تدري ما تفعل. لم يكن امامها سوى الطاعة. لقد ذهبت فالنتينا. واخذت جميع اغراضها. وغادرت البلاد من دون ان تترك ولو كلمة صغيرة تنبىء فيها اختها بمكانها. والآن ترسل لها برقية موجزة من مطار هيثرو، ، وهي متأكدة انها لن تصلها، الا بعد ان تكون قد امنت على نفسها، وبلغت مقر ابيها بسلام.

خرجت كاترين من الحمام ومازال الذهول يخيم عليها. واخذت تخرج ثيابها من احد الادراج، وهي تلف جسمها بمنشفة زهرية اللون يتهدل شعرها العسلي الحريري على كتفيها يزيد جمالها سحراً وفتنة.

ظن جيرد ان كاترين ما زالت في الحمام عندما ناداها ولم يسمع الرد فدخل الغرفة يحمل فنجان قهوة. وفوجىء بها، ولكنه لم يلتفت الى احتجاجها الصارخ، ووضع الفنجان امامها فوق الدرج، وقال آسفاً:

- حقاً انا آسف. ظننتك في الحمام، عندما ناديتك ولم تجيبي. عفواً، اني اكرر اعتذاري. انا آسف.

صاحت وهي ترتعش حياء:

- اخرج من هنا!

- انا خارج، تمتعي بقهوتك.

لحقت كاترين بجيرد في غرفة الجلوس، بعد ربع ساعة تقريباً، وهي بعد خجل ووجهها الفاتن لا يزال يتألق بالحمرة. كان جيرد يستلقي على الاريكة بارتياح وقد خلع سترته بحرية كأنه في بيته. نظر الى وجهها، الى عينيها، وسألها وهو يقف:

- هل انت مستعدة؟

- مستعدة؟ مستعدة لأي شيء؟

ثم نظرت الى بنطالها البني المخملي، والى قميصها ذي اللون العنبري. انها لم تكن مستعدة للخروج. واضافت:

- هل سنعود الى المناقشة ثانية في هذا الموضوع؟ يا سيد جيرد فريزر. . .

- جيرد، من فضلك.

- حسناً، جيرد، بالتأكيد ان برقية فالنتينا غيرت كل شيء الآن.

- بأي طريقة؟

- بأي طريقة؟ بكل الطرق يا سيد جيرد. فالنتينا لن ترجع. ولو انها تريد ذلك لما رحلت. وانت تعرف ذلك. وانا لا اعرف ماذا انت فاعل.

- انت محقة، انا لا استطيع ان افعل شيئاً.

- حسناً، اذن. . .

قالت ذلك وهي تلمح اليه بالخروج. ولكنه قال:

- حسناً، اذن. . . ماذا تعنين بذلك؟ لعلك تعنين انك لست عائدة معي الى المشفى؟ وانك ستتركين غلين يصاب بنكسة عندما يكتشف ما فعلته اختك؟

- ولكن ما ذنبي انا في ذلك؟ كان على ابن اخيك الا يدع فالنتينا تقود السيارة.

نظر جيرد الى شفتيها المرتجفتين وقال:

- انا اعلم بانه لا ذنب لك. وان ابن اخي هو الذي سمح لها بأن تقود السيارة. ولكن هل هذا يعني انه يجب ان يقاسي كل هذا العذاب؟

بدا الارتباك على كاترين وهي تقول:

- جيرد، ارجوك، انا لا استطيع ان استمر في هذه اللعبة.

نظر جيرد اليها نظرات بعثت القلق في نفسها. ثم قال:

- كاترين ارجوك انها مدة مؤقتة. فقط حتى يستعيد غلين بصره، ويصبح قادراً على تحمل الصدمة، وعندها سيكتشف الحقيقة بنفسه. اكثير علي ان اطلب منك الاستمرار بالتظاهر انك فالنتينا، الى ذلك الحين؟

لم تستطع كاترين اخفاء التعاسة التي ظهرت في عينيها، وقالت:

- انت لا تعرف ما تطلب مني. . .

- اظن انني اعرف.

- ولكن سيمون لا يرضيه. . .

- انا متأكد انه لا يرضيه (قاطعها بخشونة) ولكن لا تنسي ان غلين يتأرجح على حد السكين بين الموت والحياة.

قالت باحتجاج:

- حتى غلين نفسه لا يرضى. . .

هز جيرد رأسه وقد علت وجهه مسحة من الكآبة، وقال:

- انا اعلم ايضاً انه لا يرضيه عندما يعلم بذلك. لكن ليس الآن يا

كاترين. ليساعده الله. فهو يحب اختك كثيراً جداً. فهل انت مستعدة لأن تخبريه بأن شقيقتك تركته على هذه الحال، وهربت منه؟

استغرقت كاترين بالتفكير في كل ما حدث وما سيحدث. وصحت فجأة على صوت رنين جرس الباب. قدرت ان يكون سيمون هو الطارق. اعصابها لم تعد تحتمل مشاحنة عدائية ثانية بينهما. ولكن، كان عليها ان تفتح وتدخله. وبإيماءة حائرة من رأسها، اتجهت نحو الباب.

كان جيرد اسرع منها، واعترض طريقها ممسكاً بذراعها. وقال بصوت منخفض حنون:

ـ حسناً، ما هو قرارك؟

قالت كمن لا حول له:

ـ قراري؟ جيرد هناك من يقف بالباب.

ومن غير ان يسمح لها بالمرور قال:

ـ انه سيمون، لا اشك في ذلك. كاترين اريد ان اعرف ما هو قرارك، قبل ان تفتحي الباب.

هزت كاترين رأسها:

ـ انا لا اعرف بعد.

ـ اذن فكري.

رن جرس الباب ثانية، فقالت:

ـ جيرد، دعني امر. سيمون سيتساءل عما يحدث هنا.

حاولت جاهدة ان تبعد ذراعه عن طريقها. ولكنه كان قريباً، قريباً جداً منها ملأت رائحته المنعشة رئتيها. واحست بقوته، فداخلها هلع مفاجىء. يا لله انه اذا لمسها الآن، فانها لن تستطيع ان تقاوم.

نظرت الى عينيه بعجز ورجاء، فرأت فيهما انعكاساً لمخاوفها. لا شك انه عرف بما تفكر، مما زاد في ارتباكها، وفي لحظة احست انها طليقة. ومن دون اية كلمة ازاح ذراعه وابتعد عن طريقها. لم تحاول كاترين ان تلتفت الى الوراء، بل اسرعت الى الباب تفتحه.

لم يكن هناك احد. اطلت برأسها الى الخارج، فرأت سيمون يعبر الممر عائداً الى المصعد. مر في خاطرها للحظة ان تتركه يرحل. ولكن عقلها جعلها تنطق باسمه.

التفت اليها، وهتف باسمها عائداً يسرع الخطى.

ـ كاترين حبيبتي، يا للسماء. ظننت انك لم تصلي الى البيت بعد.

احست كاترين بارتباك شديد، وافكارها مشغولة بامور اخرى. امور فضلت ان تقصيها عن ذهنها، والا تفكر فيها مطلقاً.

تبعها الى الداخل واغلق الباب خلفه، واضاف:

ـ لقد اتصلت بالمشفى، ولكنهم اخبروني انك ذهبت الى البيت...

ـ اخبروك! لماذا اتصلت بالمشفى؟ الم تستطع الانتظار؟

اجاب سيمون بشيء من الغرور:

ـ لا تنزعجي، فانا لم اخبرهم من اكون. قولي الحقيقة يا كاترين، الست تعالجين المسألة بجدية اكثر من اللازم؟ انها ليست قضيتك...

ـ سيمون ارجوك...

حاولت ان تسكته مخافة ان يسمع جيرد كلامه. ولكن سيمون عزم على ان يقول كل ما يريد قوله، دافعاً اياها امامه الى غرفة الجلوس، وهو يقول:

ـ ان مشكلة فالنتينا مشكلتها وحدها. ولا تخص اي شخص اخر. حتى ولو كان هذا الشخص اختها. ولا يمكنك ان تستمري هكذا في حمايتها. فالنتينا ناضجة بما فيه الكفاية ويمكنها ان تعنى بنفسها. واذا كان نصف ما قاله جيرد حقيقة... من؟ جيرد فيريزر؟

ـ هذا ما كنت احاول قوله لك يا سيمون.

تمتمت وهي تحس بالتعاسة تخيم عليها. ولما رأت جيرد وقد لبس سترته في غيابها اضافت:

ـ لقد... لقد وصلنا لتونا من المشفى.

ـ حقاً؟

ـ نعم حقاً (قال جيرد بصراحة) وعلي ان اعيدها الى هناك. هل انت آتية كاترين؟

ادخلت كاترين يديها في جيبيها، وهي تحرك كتفيها بضعف، وعيناها تنطقان بالبؤس. ومن دون ان تجيب جيرد على سؤاله، وجهت كلامها الى سيمون ثانية:

ـ جاءتني برقية من فالنتينا.

تمتمت وهي تشير الى البرقية الملقاة على الطاولة:

- اقرأها.
هز سيمون كتفيه بلا مبالاة. ولكن حب الاطلاع جعله يتناول البرقية. قرأها واعادها الى كاترين، وقد احمر وجهه غضباً. وهتف صارخاً:
- يا للشيطانة الصغيرة. فقد وجدت لنفسها مكاناً تأوي اليه.
تنهدت كاترين وقالت:
- هذا ما يبدو.
- ولكني اظن ان هذا واضح.
- لا، انا . . . انا لا ادري.
تدخل جيرد يسأل:
- هل اختفى جواز سفرها ايضاً؟
وبعد ان بحثت كاترين عنه، عادت اليهما وهي تهز رأسها.
وضع سيمون ذراعه على كتفها من غير كلفة وقال:
- اذن فهي بالفعل سافرت الى ابيها. وهذا يجعلك خارج الشرك الذي اعد لك.
ابدى سيمون ملاحظته الأخيرة وهو ينظر بطرف عينه الى جيرد. اما جيرد فقد هز كتفيه بلا مبالاة، وسأل كاترين، متجاهلاً سيمون وكلامه:
- هل انت قادمة معي؟
- بالتأكيد لا، انها ليست قادمة!
كان سيمون هو الذي اجاب وهو يرفع ذقنه بعداء. وتابع:
- انظر يا سيد جيرد، لقد صبر كلانا عليك كثيراً وكنا لطيفين. . .
- انا اسأل كاترين. حسناً يا كاترين، القرار الأخير هو لك.
ولكن الواقع انه لم يكن قرارها، وهو يعرف ذلك. فإذا حصل شيء لغلين، لن تسامح نفسها ابداً.
- آسفة يا سيمون.
سحب سيمون ذراعه عن كتفها، وسأل:
- انت ذاهبة معه؟
- يجب ان افعل.
- يجب الا تفعلي شيئاً.
نظرت الى جيرد . . . وقالت:

- بل يجب، لبعض الوقت، يا سيمون. يجب ان استمر في التظاهر الى فالنتينا. ولكن حالما يصبح غلين خارج الخطر، حالما يصبح بصحة جيدة تسمح لأن تقال له الحقيقة. . .
قاطعها سيمون بغضب:
- وكم سيأخذ من الوقت هذا الشفاء؟
- بضعة ايام!
- بضعة ايام (قال سيمون ساخطاً) واظن انه يجب علي ان امضي في طريقي، بينما حبيبتي كاترين، تلعب عند غلين دور المحبة الحزينة.
- سيمون - ارجوك - انه اقل شيء يمكنني ان افعله. الا تدرك ذلك؟
- بصراحة، لا. ولا يهمني كثيراً ما يحدث لغلين او لعم غلين.
هز جيرد كتفيه بعدم اكتراث. ومن اجل كاترين ابتلع الاهانة. وسار بأدب نحو الباب. وعندما التقت عيناه بعينيها، احنى رأسه، وقال بصوت مليء بالمعاني:
- سانتظرك في السيارة.
هزت كاترين رأسها تعبيراً عن شكرها. ولما غادرهما جيرد، امسك سيمون بكتفيها وهزهما وقال غاضباً:
- كاترين، لا تفعلي ذلك، بحق السماء، انك تتلفين نفسك. . .
لمست كاترين وجنته بلطف ورقة، وقالت:
- انها ايام قلائل يا سيمون. لا تقلق. استطيع ان اقوم بهذه المهمة. فأنا لا اريد لهذه العائلة ان تقع في مصائب اخرى.
- آه، حسناً. ارى انك مصممة. لم يعد عندي ما اقوله حتى اثنيك عن عزمك. ولكن كل ما آمله الآن هو ان تعرفي تماماً ما انت مقدمة عليه!
مضى سيمون في طريقه حزيناً غاضباً. واما كاترين فقد صحبت جيرد، الى مطعم صغير غير بعيد عن المشفى. ارادت ان تطلب طعاماً خفيفاً، ولكن جيرد اصر على ان يقدم لها وجبة كاملة. وفي النهاية اكلت كاترين كل ما قدم لها دلالة على جوعها الشديد. اما هو فلم يأكل الا قليلاً. واخذ يحدثها عن حياة غلين في لندن. حدثها باختصار عن سبب التحاقه بالجامعة في لندن، وعن مكان سكنه، وهواياته. وبما انها كانت تدرك شخصية اختها السطحية، فانها كانت متأكدة ان فالنتينا، لم تكن لتعير اهتماماً

لماضي غلين او حاضره. فقد كان اهتمامها الرئيسي ينصب فقط على الحفلات والمسرات. وطالما كان غلين يستطيع ان يحقق لها ذلك، فقد بقيت على صلة به. والا فهي كانت على استعداد ان تتركه بأية لحظة. انه لمن المدهش حقاً، ان لعوباً مثل فالنتينا، يمكنها ان تثير عواطف غلين الصادقة الى مثل هذا الحد. وتساءلت كاترين، ترى الى متى يجب ان يبقى مخدوعاً؟

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة عندما استيقظ غلين. فجف حلق كاترين عندما رأته يتحرك. يالله، لماذا اختار جيرد تلك اللحظة بالذات ليذهب، ويتكلم مع الطبيب. لقد بقي مدة جالساً معها صامتاً، مخافة ان يصحو غلين على حديثه. ولكن الذنب لم يكن ذنبه فالطبيب المختص هو الذي طلب من جيرد ان يلحق به في مكتبه بعدما زار غلين وعاينه.

- فالنتينا.

انه مما ازعج كاترين حقاً، ان يكون اسم اختها هو اول كلمة تخرج من شفتيه، عندما استيقظ. فانحنت الى الأمام ولمست بخفة وجنته. وقالت:

- انا هنا يا غلين.

- فالنتينا.

نطق باسم شقيقتها ثانية. وهو اكثر وثوقاً من نفسه. وبدت عيناه الزرقاوان كأنما تنظران اليها.

- كيف... كيف تشعر الآن؟

قالت كاترين ذلك وهي تنظر بقلق نحو الباب وتتمنى ان يعود جيرد. وتابعت:

- لقد نمت عدة ساعات الست جائعاً؟

افترت شفتا غلين عن اسنان بيضاء كالثلج بابتسامة حلوة، واصابعه تمسك بمعصمها يقربها منه، وقال:

- هل كنت جالسة هنا طيلة هذا الوقت؟

- معظمه. عمك اخذني لاتناول شيئاً من الطعام. وما عدا ذلك كنت اجلس هنا ارقبك وانت نائم.

سرت رعشة في عروق غلين وهو يحاول جاهداً ان يتمسك

بكاترين، وقال:

- ان صورتي ليست جميلة، اعرف ذلك. واظن انك لا تستطيعين النظر الي.

كتمت كاترين تنهيدة اسى في صدرها من غير كلام. اما غلين فقد غير مجرى حديثه وسأل:

- اين جيرد الآن؟

- انه مع الطبيب في مكتبه.

- انه رجل غريب، اليس كذلك؟ جميعنا نعتمد عليه.

- الجميع؟

- اعني امي، وابي، وبقية الرجال...

- حسبت ان اباك قد توفي.

خرجت الكلمات من فمها على غير وعي منها. وتمنت لو انها لم تتسرع. ولكن لم يبدو على غلين اي انزعاج من كلامها. وقال:

- حقاً ابي قد توفي من مدة، والذي اعنيه هو جدي، والد ابي.

- حسناً، اني متأكدة من ان جميع افراد عائلتك سيسرهم ان يعلموا انك ستماثل للشفاء...

وتوقفت عن الكلام جافلة، عندما احست باصابعه تقبض بقوة غير متوقعة على معصمها، ويقربها منه وهو يسأل:

- هل سأشفى حقاً؟ هل سأكون بخير؟ هل سمعت اي شيء عن حالتي؟ فالنتينا، هل هناك ما تخفونه عني؟ ارجوك اخبريني.

استطاعت كاترين ان تتحرك بصعوبة في مقعدها. نظرت نحو الباب، تتمنى دخول اي انسان، ولكن الباب بقي مغلقاً. وكان لزاماً عليها ان تعيد الطمأنينة الى نفسه، فقالت محاولة ان يكون صوتها صوت الواثق من نفسه:

- بالتأكيد، بالتأكيد ستكون بخير. ان جروحك ليست عميقة وهي فقط حول عينيك. كان من الممكن ان تصاب بارتجاج في الدماغ، ولكن ليس هناك سبب...

قاطعها وعلامات الارهاق تبدو في نبرات صوته:

- فالنتينا. ولكني اعمى. اني اعمى ولا استطيع ان ارى شيئاً. ماذا

سيفعلون من اجل استعادة بصري؟
- لا ادري ماذا سيفعلون. ولكني اعرف انه عمى مؤقت ويحدث احياناً بعد الصدمات.
- هل انت موقنة حقاً؟
تملك كاترين اسى عميق. فهو مع كل ما جرى له، لم يحاول ان يوجه لها حتى ولا كلمة لوم واحدة. وقالت وهي تضغط على ذراعه بتودد:
- انا متأكدة، ولكن المسألة تحتاج الى وقت. هذا كل ما في الأمر.
فجأة قال غلين بصوت هامس:
- انا لم اخبرهم بشيء. لا يمكن ان افعل ذلك. لم تكن غلطتك. انها تلك القطة اللعينة. فالنتينا حبيبتي، كوني مطمئنة، ولا تقلقي.
اسعفها دخول الممرضة الليلية الى الغرفة، وهي تسأل:
- هل استيقظ مريضنا؟
ثم تقدمت منه وتابعت بروح مرحة، تلك الروح التي تتطلبها مهنتها:
- كيف تشعر هذا المساء سيد غلين؟ هل ستدع الآنسة فالنتينا تذهب الى البيت لتنام قليلاً؟
سأل غلين بارتباك:
- كم الساعة الآن؟
نظرت الممرضة الى ساعتها وهي تقترب منه لتجس نبضه، وقالت:
- انها الحادية عشرة والنصف تقريباً، والطبيب سينغ، سيأتي الآن ليراك وانت مستيقظ. واني اقترح ان تذهب الآنسة فالنتينا لترتاح الآن، وتعود اليك في صباح الغد.
وقفت، وهي تشعر بالامتنان لهذه الممرضة التي انقذتها، وقالت:
- نعم، نعم، سوف آتي في الغد.
امسك غلين بأصابعها وسألها:
- هل سيسمحون لك بذلك؟ اليس لديك عمل في الغد؟
ثم التفت الى الممرضة واضاف:
- فالنتينا ممرضة ايضاً، في سنتها الأولى، في مشفى سانت ماري. وهكذا سأكون في ايد امينة عندما اعود الى البيت.
اضطربت كاترين واحمر وجهها ولكن الممرضة كانت مشغولة بمعالجة

غلين، فلم تلحظ ذلك. وقالت من دون ان تنظر اليها:
- انا اعرف ممرضة هناك، اسمها مارغريت فليمينغ. هل تعرفينها؟
- الاسم مألوف لدي... من الأفضل ان اذهب الآن. سوف اراك غداً.
انحنت كاترين وصافحت غلين بلطف مودعة. اراد غلين ان يحتج على هذا الوداع العادي، لكن الممرضة لم تترك له فرصة لذلك، فاخذت مكانها وابتدأت ترفع كم قميصه لتقيس ضغطه.
ولكنه قال وعيناه غير المبصرتين تنظران في اتجاهها:
- حسناً، سوف اراك غداً... اريد ان اقول...
قاطعته الممرضة وقد احست به يرتجف عند قوله «سوف اراك»:
- والآن سيد غلين، هذه ليست الطريقة المناسبة لتودع فيها صديقتك.
اجتازت كاترين الممر وهي تحس بتعب شديد. مع انها لم تقم باي عمل. وجيرد كان واقفاً في نهاية الممر، مستغرقاً في مناقشة مع رجل اسمر اللون يلبس رداء ابيض، عرفت كاترين انه لا بد ان يكون الطبيب. فجأة رفع جيرد نظره فرآها ودعاها للانضمام اليها. وقدمها للطبيب قائلاً:
- الآنسة كاترين مالوري.
ثم وجه حديثه لكاترين:
- كنت في هذه اللحظة اشرح للدكتور سينغ ظروف الحادث.
رفعت كاترين نظرها اليه وقالت:
- انت تعني...
قاطعها الطبيب:
- يعني، انه اخبرني انك لست الآنسة الصغيرة. مع ان غلين فريزر مقتنع بانك فالنتينا.
عضت كاترين على شفتيها:
- وما هو رأيك؟
- عن السيد غلين؟ او عن خداعك؟
- عن الاثنين.
قال الطبيب:
- السيد غلين سيشفى قريباً. جروحه ليست خطيرة. وهو يستطيع ان

يغادر المشفى بعد اسبوع او اقل.

ـ آه، شكراً لله.

ـ اما بصره فهو مسألة اخرى.

ـ ولكني فهمت ان عماه مؤقت.

قال الطبيب بهدوء:

ـ قد يكون كذلك. العمى الذي يعاني منه غلين، هو حالة تشنج، ونحن لا نعرف ما فيه الكفاية عن حالات التشنج العصبي حتى نستطيع ان نقول بثقة تامة، متى سيعود اليه بصره.

ـ وماذا عن فالنتينا؟ هل تظن انه يجب ان يعرف شيئاً عنها؟

ـ لا، ليس الآن. انا اعرف صعوبة هذا الأمر عليك يا آنسة كاترين. ولكن الآن ليس الوقت المناسب، ليتلقى غلين هذه الصدمة. فهو بحاجة الى راحة واطمئنان، وعلينا ان نتعاون على تهيئة هذا الجو له.

اختار جيرد هذه اللحظة ليفجر قنبلته، فوجه كلامه للطبيب قائلاً:

ـ لقد قلت ان غلين يمكنه ان يخرج من المشفى بعد اسبوع. اليس كذلك؟

هز الطبيب رأسه وقال:

ـ ربما عشرة ايام.

قطب جيرد جبينه وقال:

ـ عندئذ، اذا اصبح غلين قادراً على السفر، فسيرافقني عائداً الى وطنه. وسوف اجري له الترتيبات اللازمة مع مشفى كالجري، ليواصلوا معالجته هناك. وريثما يحين ذلك الوقت، سأسافر الآن وحدي الى بلدي في كندا لقضاء بعض الأعمال. ثم اعود في الوقت المحدد لاصطحابه اذا لم يكن لديك اي اعتراض على ذلك.

ـ لا اجد اي سبب يمنع ابن اخيك من السفر بعد عشرة ايام. والرحلة ستكون ممتعة في الطائرة.

ـ انا املك طائرة خاصة، وسيلقى فيها كل عناية ورعاية.

ارتجفت كاترين عند سماعها بأن جيرد سيتركها هذه المدة وحدها مع غلين. كما دهشت عندما عرفت انه يملك طائرة لنفسه. انها لم تلق من قبل رجلاً يملك طائرة خصوصية، فما هي الأعمال التي يقوم بها يا ترى؟ بدت

الامور معقدة بالنسبة اليها. واحست ان سيمون كان محقاً عندما حذرها مما هي مقدمة عليه.

لم تسمع كاترين بقية الحديث الذي دار بين الطبيب وجيرد، لأن افكارها كانت مشغولة بوضعها، وما سيؤول اليه حالها. وعندما ودعهما الطبيب ومضى نحو غرفة غلين، التفتت الى جيرد وقالت من غير ان تترك له مجالاً للكلام:

ـ لا يمكنك ان تذهب وتتركني وحيدة مع غلين. فانا لا استطيع ان استمر في هذه اللعبة من غير مساعدتك. انني لا اعرف شيئاً عن غلين. فكيف يمكنني ان اعالج الأمور، عندما يحدثني عن فالنتينا، عن المستقبل الذي يصبوان اليه، عن الذكريات التي لا اعرف عنها شيئاً. عن الناس الذين لهما صلة بهم. انه في الواقع عمل جنوني. من الجنون اني رضيت الدخول في هذه التمثيلية، واما الاستمرار فيها فهو اشد جنوناً.

هز جيرد رأسه وقد ضاق صدره وقال:

ـ هدئي من روعك يا كاترين. انا اعرف انني بهذا القي العبء كله على عاتقك. ولكن طالما اصبح غلين قادراً على السفر فيجب ان اذهب لأمهد الطريق.

ـ تمهد الطريق؟ ماذا تعني...

ـ نعم امهد الطريق، يجب ان ارى ليزا، يجب ان اخبرها عن حاله. اليس من حق والدته ان تعرف كل شيء عنه؟

قالت صائحة:

ـ الم تخبرها انه اعمى؟

ـ اسمعي لا يمكننا ان نناقش الأمر هنا. دعيني اخبر غلين انني ذاهب، وسأوصلك الى البيت.

ـ لا تتعب نفسك فسوف استقل سيارة عمومية.

ـ لا تكوني سخيفة (صاح جيرد) لن تجدي اية سيارة في مثل هذا الوقت. انتظري هنا قليلاً.

كان جيرد محقاً في قوله، عن السيارة على الأقل. كم كانت كاترين بحاجة لتنفرد بنفسها بعد كل ما سمعت، لتواجه الأسبوع المقبل الذي ستكون فيه وحدها مع ذلك الأعمى المذعور. زمت شفتيها بمرارة عندما

فكرت بالعمى . . . وهي تعلم انها كانت هي العمياء الحقيقية عندما رضيت ان تدخل هذه اللعبة.

كان جيرد قادماً نحوها نشيطاً مليئاً بالحيوية، على الرغم من انه لم ينم الا قليلاً، او انه لم ينم على الاطلاق في الليلة الماضية.

- دعينا نذهب.

لم يكن لدى كاترين الخيار، كان عليها ان تطيع. بأية حال كانت تحس بانه شخصية خلقت لكي تأمر فتطاع.

كانت الساعة الثانية عشرة وخمس وأربعون دقيقة، عندما وقفت سيارة المرسيدس امام المبنى. وكاترين عزمت على الا تصحو مبكرة في صباح الأحد، مهما كانت الأسباب.

عندما ارادت كاترين ان تخرج من السيارة، وضع جيرد يده على ذراعها وقال:

- اريد ان اشكرك فقط. واني لاقدر فيك كل ما تفعلينه لأجلنا. وتأكدي انك لن تكوني الخاسرة.

تأثرت كاترين بنغمة صوته الجذابة. ولكنها ابعدت يده عن ذراعها وقالت:

- انا لا اريد شيئاً منك يا سيد جيرد. ان ما افعله، افعله من اجل غلين، وليس من اجلك. ليلة سعيدة.

- كاترين . . .

سمعت نداءه وهي تسرع الى داخل المبنى. ولم تتوقف لترى إذا كان يتبعها. قفزت الى المصعد من غير ان تلقي نظرة الى الوراء.

٥- جو مشحون

لقد امضى جيرد طيلة صباح الأحد، اي اليوم السابق لموعد سفره، عند ابن اخيه. وكذلك فعلت كاترين، التي كانت قد اتفقت مع سيمون، ان يأتي في المساء، ويصطحبها لحضور حفلة فرقة بارتوك الموسيقية.

انه لمن الممتع حقاً بعد كل العناء الذي قاسته كاترين، ان تجلس بارتياح في القاعة الفسيحة الفخمة، وتترك الالحان الشجية تنساب الى سمعها بعذوبة. وتحس انها استردّت شيئاً من حريتها السليبة، تتصرّف بها كيفما شاءت. ولكن ما لن يغيب عن مخيلتها ابداً، امارات التوتر والاستياء التي ظهرت على وجه جيرد عندما اعلمته بخطتها. وفي اليوم التالي في ظهر يوم الاثنين سافر جيرد الى كالجري وتركها وحيدة مع غلين.

اثناء الاسبوع الذي غاب فيه جيرد، عملت كاترين جهدها لتبعده عن مخيلتها، وتقصيه عن تفكيرها. عزمت على ان تنساه. ولكن هذا لم يكن سهلاً عليها. فكثيراً ما كان يذكره غلين، فيعود جيرد الى ذاكرتها. كانت كاترين تلمح امارات الاطمئنان تلوح على وجهه، عندما يتحدث عن عمه، ولذا لم تكن تقاطعه، او تغير مجرى الحديث.

أما عن اخبار فالنتينا، فان والدها لم يتصل بها هاتفياً. بل أرسل اليها برقية يخبرها فيها ان شقيقتها عنده ويطمئنها عليها. كما وعدها ان يكتب لها مفصلا في المستقبل.

كان من الصعب على كاترين ان تجد تفسيراً لغلين، عن عملها اليومي اثناء النهار، وزيارتها له في المساء. فمواعيد عمل أختها كانت تختلف. فتلك كانت تعمل بعض أيام الأسبوع في النهار، والبعض الآخر في الليل.

ولم تجد كاترين لها مهرباً، الا ان تلجأ الى الكذب من جديد. واخبرته انها استطاعت ان تحصل على اذن خاص بسببه، يسمح لها بموجبه ان تغيب نهاراً طيلة أيام الاسبوع لتقضي الأمسيات الى جانبه.

أصبحت أتعس الساعات واقساها بالنسبة الى كاترين، تلك الساعات التي تقضيها منفردة مع غلين. خصوصاً وانه أخذ يتماثل الى الشفاء، وغدا أشدّ قوة وأكثر جرأة. صار بمقدوره ان يتودد لها، ويحاول ان يغادر الفراش. ويجلس على الكرسي، أو يمشي قليلا في الغرفة. يستطيع الاقتراب منها، ويتلمس بشوق وجهها الذي طالما فتن به وأحبه.

لم تكن كاترين تدري كيف تتصرّف. كيف تخفي اضطرابها، كيف تسكت دقات قلبها الخائفة. فانها ان صبرت على مداعباته، فهي تخشى ان تمتدّ يده، يعبث بشعرها الناعم الأملس، فينحلّ وينسدل على كتفيها. وعندئذ يدرك غلين انها ليست فالنتينا ذات الشعر القصير المتموّج، عندئذ يدرك الخدعة، فماذا عساها تفعل، من سينقذها من تلك الورطة؟ اما اذا ابتعدت عنه ولم تترك له مجالا لذلك، فيحسب ان عواطفها نحوه قد خمدت، مع انه يتوقع ولا شك، بعد الذي حصل، ان تزداد له حباً وبه تعلقاً. كان عليها ان تحتاط للأمر، من غير ان تدع الشك يتسرّب الى نفسه.

استمرّت عيناه على حالها. ففي بادىء الأمر كانت كاترين تستطيع ان تطمئنه وتبعث الأمل في نفسه. ولكن عندما اخذت الأيام تمرّ تباعاً يوماً بعد آخر، وهو لا يزال يعيش في حلكة الظلام، ازدادت مخاوفه، وأضناه اليأس. وادركت انه بذلك لم يعد قادراً على اكتشاف شخصيتها. ولكن كاترين في الواقع لم يعد خوفها من ان يكتشف هويتها، يوازي خوفها عليه من ان يستمرّ في عماه ويصاب بارتجاج في دماغه.

أصبح غلين كثير الكآبة، قليل الحركة. يمضي وقته عند زيارتها له، يسألها عن حاله. يسألها عن رأي الاطباء في وضعه. ينتظر كلمة تعيد اليه الأمل. وتبعث في نفسه الرجاء. لقد تقبّل سفر عمه الى كالجري بارتياح، لمعرفته انه عند عودته سيصحبه في اجازة طويلة الى بلده. وعلى هذا الأساس فقد طلب من فالنتينا - على حسب اعتقاده - برجاء مشفوع، بكثير من الحزن، ان ترافقه في اجازة تأخذها لنفسها أيضاً. وأكّد

لها انها ستسرّ كثيرا في المزرعة.

دهشت كاترين عندما عرفت ان جيرد يملك مزرعة. فهي تعلم، كما هو معروف في انكلترا، ان اصحاب المزارع نادراً ما يتسع لهم الوقت للقاءات والسفر. كما انهم لا يملكون طائرات خاصة، يطيرون بها ويرجعون عبر المحيط كلما يحلو لهم ذلك. فان اكثر ما يستطيعون ان يفعلوه هو ان يذهبوا الى الاسواق. في أية حال فهي تجهل كل شيء عن طبيعة المزارع في كندا، فلعل جيرد عضو في جمعية زراعية.

تلقى سيمون خبر حالة غلين وكآبته من غير استياء، وقال:

- ان اي شخص، يدع مثل تلك الأخت الطائشة تقود سيارته، يستحق اكثر مما حدث له ويحدث. لا شك ان هذا الشاب معتوه!

جرى هذا الحديث في مساء أحد الأيام، وقد اصطحب كاترين الى بيت امه في كنسال غرين.

وضعت السيدة ترافس - والدة سيمون ترافس - صينية على الطاولة بجانب كرسيها، عليها صحن فيه بسكويت، وثلاثة فناجين من الشاي. ثم قالت تؤكد كلام ابنها:

- هذا صحيح يا كاترين. فأنا لا أعذر اختك ابداً على هروبها. واعجب كيف تعالجين الأمر على حسابك، بلا مبالاة!

- بلا مبالاة!

رددت كاترين تلك الكلمات وهي تنظر الى السيدة ترافس باستغراب، وسمعتها تتابع قائلة:

- بالتأكيد بلا مبالاة. وانت تمثلين دور اختك، وتمنحين غلين عواطفك. مع أنك تدركين ما يمكن ان تكون النتائج.

- حقاً كان على غلين ألا يسمح لاختي أن تقود السيارة. ولكنه، لما كان مغرماً بها كثيراً، ويفعل كل ما يرضيها، كي يراها سعيدة، ارتكب هذا الخطأ. نحن جميعاً نقر انه اخطأ. ولكن ماذا كانت النتيجة؟ انه الشخص الوحيد الذي اصيب، وهو الشخص الوحيد الذي يعاني. أليس ما اصابه عقاب كاف لما فعل؟

ومن غير ان يلتفت سيمون اليها، او يقتنع بكلامها، قال وهو يتناول قطعة من البسكويت:

- على أية حال، فان رأيي يتفق مع رأي والدتي. وأظن انه حظي الكثير من كرمك.

- من؟ غلين. لا هو لم يحظ...

قاطعها سيمون موضحا قصده:

- لا ليس غلين من أعني. اني أعني عمه بالطبع. يمضي هكذا، ويتركك تتحملين المسؤولية بمفردك.

هزت الأم رأسها متدخلة:

- وهذا ليس مناسباً من أجل سيمون أيضاً. هل تشعرين بما يحسّ به، عندما يسأله بعض الأصدقاء عما كنت تفعلين في المشفى؟ ان للناس ألسنة تتكلم يا عزيزتي!

نظرت كاترين نحو سيمون وقالت شفتاها ترتجفان:

- أصدقاء؟ من؟

- توبي ريتشارد.

ذكر سيمون الاسم وهو غير راغب ان تقحم والدته هذا الموضوع في مناقشاتهم. أما كاترين فقد هزت رأسها باستغراب، وقالت:

- اذن هو توبي ريتشارد. بربك يا سيمون، هل يمكنك ان تسمّي هذا الانسان صديقاً؟

- لا، لكنه كان زميلي. وهو يعرفك من بعيد.

- ورآني في المشفى؟

- نعم، رآك مع عم غلين. فقد كان توبي ذاهباً الى المشفى ليزور أمه المريضة، تماماً في الوقت الذي خرجت فيه بصحبة جيرد من هناك.

- آه. عرفت.

لقد فهمت كاترين ان زيارتها لغلين ليست هي المقصودة، ليست هي التي كانت تزعج سيمون. بل ظهورها بصحبة رجل آخر. انها تسمع الكثير عن توبي وسمعته السيئة، وهي تقدّر الآن ما الذي قاله، وتخيّلت أي تأويل يمكن ان يكون قدمه لسيمون.

- على كلٍّ، كيف حال غلين هذا المساء؟

تدخلت السيدة ترافس بهذا السؤال، عندما رأت الغضب يطل من عيني كاترين. غير راغبة بالدخول في مشادة أخرى. خصوصاً وانها لم تكن

متأكدة من الجانب الذي سينحاز اليه سيمون. والسيدة ترافس تعلم انه في الغالب كان يقف الى جانب كاترين، حتى ولو كانت ادعاءات الوالدة صحيحة.

أرادت كاترين ان تتجاهل السؤال وتتابع قصة توبي ريتشارد. ولكنها لم تكن ترغب ان يدب خلاف بينها وبين سيمون. فاصطنعت ابتسامة باهتة وأجابت:

- ان حالته الصحية في تحسّن مستمرّ. اما مسألة البصر فهي المشكلة الاساسية.

سألتها السيدة ترافس:

- ألا يستطيع ان يرى شيئاً؟

- مطلقاً. مسكين هو غلين. احس بأني حزينة جداً من اجله.

نفد صبر سيمون وهبّ واقفاً وهو يقول:

- أوه، متى سيعود جيرد هذا؟ متى تتوقعين ان نتحرر من هذا الواجب؟ كاترين اني اكاد اختنق.

وضعت كاترين فنجان الشاي من يدها على الطاولة، وقالت:

- آسفة، لأنك تحس بهذا الشعور. ولكن ماذا تريدني أن افعل؟ هل اتوقف عن زيارة غلين؟

أخذ سيمون نفساً عميقاً، وقال:

- حسناً، ولكن عندما يعود عمه...

- عندما يعود عمه، سوف يصحبه الى بلده.

قالت ذلك وهي تحس انها ستفتقد غلين...

عادت كاترين مساء الخميس من المشفى الى البيت مباشرة. وفتحت الباب على رنين الهاتف. نظرت الى ساعتها فألفتها تشير الى التاسعة والنصف تقريباً. توقعت ان يكون المتكلم جيرد، فلم تتعجل الرد. ولكن عندما رفعت السماعة، اتاها احساس غريب، كأن الصوت آت من بعيد. قفز تفكيرها رأساً الى أبيها. قد يكون قرر أخيراً أن يتصل بها. الا ان صوتاً آخر هو الذي سمعته. صوت عميق ينبض بالحياة. انه صوت جيرد.

- لا اظن اني ايقظتك من نومك. هل فعلت؟

قال ذلك بعد ان حياها وردت عليه التحية.
ـ لا. الآن قد وصلت. كنت أزور ابن أخيك. من اين تتكلم؟
ـ من موز باي (أجاب بصراحة) فقط اردت ان اطمئن على غلين.
ـ لماذا لم تتصل بالمشفى؟
ـ لقد اتصلت، وتكلمت مع غلين، في اللحظة التي تركته بها. لهذا فاني اتحدث اليك.
تسمّرت راحة كاترين بالسماعة، وغاصت في الأريكة، وسألت:
ـ ولكن لماذا؟
ـ لأسالك انت عن حالته؟ فانت تعرفين الحقيقة أكثر منه.
هزت كاترين رأسها وقالت:
ـ لا جديد. غير ان اضطرابه ازداد بسبب عدم رجوع بصره اليه.
قال جيرد بصوت حزين:
ـ الله وحده يعلم كيف سيتمكن غلين من التعايش مع هذا العمى الذي لا يعرف متى تكون نهايته.
صمتت كاترين هنيهة ثم قالت:
ـ هل أخبرت والدته بذلك؟
ـ نعم أخبرتها، فوقع عليها وقوع الصاعقة. وكذلك على والدي.
ـ انا آسفة.
أحست أنها كلمات تافهة تلك التي تفوّهت بها. ولكنها لم تجد كلمات اخرى تقولها.
وأضافت:
ـ متى ستعود؟
ـ لماذا؟ هل اشتقت إليّ؟
ـ بالتأكيد، فان غلين اشتاق اليك كثيراً، وهو يذكرك دائماً. ولا بدّ انه سيشعر بالتحسن عندما تعود، ويغادر المشفى.
ـ حسناً سأعود مساء الجمعة المقبل، وسأتصل بك صباح السبت. هل هذا يناسبك؟
ـ لا بأس.
وقبل ان ينهي المكالمة قال:

ـ كاترين، أريد ان أعتذر عن تلك الليلة. في الحقيقة لم أكن أقصد اغاظتك. ولا أدري ما كنا سنفعل أنا وغلين بدونك. سأراك يوم السبت. الى اللقاء.
وضعت كاترين سمّاعة الهاتف ببطء مكانها. ومرّت بها بضع دقائق قبل ان تخلع معطفها. احست برعشة تسري في جسمها. وبضعف ألمّ بها. ولكم عنفت ذاتها، لأنها أخذت بجاذبية هذا الرجل. فالمسألة كلها انه كان مؤدباً. وسبب اتصاله بها كان واضحاً. لقد كان قلقاً على ابن اخيه. وعليها ألاّ تنسى، ان غلين هو من يحتاج اليها، وليس جيرد. ومع كل هذه الأمور التي تقنع نفسها بها، لم تستطع ان تنكر انه رجل جذاب.
سخطت كاترين من عواطفها السخيفة، كما خشيت منها أيضاً فهي ما عادت تلميذة مدرسة، تنجذب لأول رجل يتودد اليها. بل بلغت من العمر الحادية والعشرين، وكان لها عدد من الزملاء والاصدقاء، منذ كانت في السادسة عشرة من العمر. وكذلك هي وسيمون، فقد مضى على صحبتهما سنوات ثلاث، ولم تشعر نحوه في أية لحظة، بما تحس به الآن. قالت في نفسها، في أية حال، فان غلين وعمه سيسافران قريباً، ويخرجان من حياتها، والى الابد. وهذا هو الأفضل.
عندما استيقظت صباح السبت لم تستطع ان توقف ما احست به من مشاعر. فلا بد ان جيرد قد عاد من رحلته. تناولت فنجاناً من الشاي، وهي تتصفح احدى الصحف. كانت تنتظر... وعندما رنّ جرس الهاتف، قفزت لتجيب.
لكن لخيبتها كان المتحدّث سيمون. يطلب منها ان ترافقه ووالدته يوم الأحد، الى زيارة خالته إدنا لتناول طعام الغداء عندها.
هذه الفكرة لم تكن مقبولة أصلاً لدى كاترين. فهي تعرف ان إدنا مثل السيدة ترافس، ليس لديها حديث الا عن أوجاعها، والعمليات التي أجريت لكل منها. وهذا لا شك شيء مضجر ومملّ. بالاضافة الى انها لا تستسيغ الطعام الذي تقدمه تلك الخالة.
قالت تجيب سيمون على دعوته:
ـ آه، سيمون، دعني أفكر في الموضوع. فأنا لا أعرف متى سيسافر غلين وعمه. وأرغب أن أكون طليقة في الغد، لأقوم ببعض الأعمال المنزلية.

ردّ سيمون منزعجاً

ـ لا أظن ان يوماً واحداً سيؤثر على هذه الأعمال.

ـ ولكنك تعلم يا سيمون، ان الأحد يوم عطلتي. وهو اليوم الوحيد الذي يمكنني ان أقوم فيه بما يترتب عليّ من أعمال المنزل.

ـ لم يكن هذا رأيك يوم الأحد الماضي. عندما اصطحبك جيرد وقضيت النهار بطوله في المشفى.

ـ حسناً يا سيمون، انا آسفة. سوف أراك في المساء. وعندئذ نبحث الأمر.

ـ أريد ردّك الآن يا كاترين. فأنت تعرفين أن خالتي يجب ان تعرف ذلك مسبقاً، كي تهيء الغداء حسب عددنا.

ـ لا أستطيع الردّ الآن، وكما قلت لك أترك الأمر للمساء.

ـ انا آسف يا كاترين. سأذهب أنا وأمي. فانا لا أقدر أن أرتّب أموري حسب ظروفك.

عرفت أنها أغضبته. ولكن في الواقع لم يكن لديها أدنى ميل لتلبية هذه الدعوة، ولا أي استعداد لتستمع من جديد الى قصة عملية الغدة الدرقية التي أجرتها خالته.

وقالت:

ـ لا بأس، اذن سأراك في المساء.

وبكلمة مقتضبة تدل على الموافقة أنهى المكالمة.

بينما كانت ترتدي ثيابها، رنّ جرس الهاتف ثانية. وفي هذه المرّة كان جيرد هو المتكلم. وعندما سمعت صوته أحست برعشة تسري في أوصالها. بدأ بتحيتها ثم قال:

ـ متى أستطيع ان أراك؟ هل ترغبين في تناول الطعام معي، أنت وسيمون؟

ـ لن أرى سيمون حتى المساء. اما أنا فلا أجد مانعاً من مرافقتك. أين؟ ومتى؟

عينَ لها مطعماً يلتقيان فيه، في تمام الساعة الواحدة ظهراً وأنهى الحديث.

ترى أي طائرة هذه التي تأخذه وتعيده عبر الاطلسي متى يشاء؟

هذا ما جال في خاطرها، بعدما أعادت سماعة الهاتف الى موضعها.

من الذي يقودها؟ ان الطائرة ملك لجيرد، هذا ما عرفته، أما ان يكون هو الذي يقودها أيضاً فهذا ما لا يمكنها ان تصدقه. فهي لم يسبق لها ان سمعت، ان هناك من يقود طائرة آلاف الأميال، ويبقى نشيطاً الى درجة ان يصحبها الى تناول الغداء.

لبست كاترين ثياباً بسيطة مرتبة. لم تحاول ان تبالغ في اناقتها لئلا يظن أنها تفعل ذلك لتلفت انتباهه. مع انها شعرت ان جميع تصرفاتها تدلّ على انها ترغب في ذلك. ثم سرّحت شعرها، وربطته بشريط حريري خلف عنقها، تاركة بعض خصله تنساب على اذنيها.

نظرت الى مظهرها نظرة رضا، عندما وقفت امام المرآة تتأمل نفسها، قبل ان تغادر المنزل.

كانت تتوقع ان تجد جيرد ينتظرها عند الباب. ولكنها هي التي تأخرت عن الموعد المحدد بضع دقائق. فالسائق لفّ بها كثيراً في الطرقات، حتى اهتدى الى المكان الذي أشارت اليه.

تقدم نحوها أحد العاملين في المطعم، فسألته على الفور عن السيد جيرد فريزر.

احنى رأسه بأدب دلالة على وجوده، وعلى شفتيه ابتسامة لطيفة.

سارت كاترين في رواق مظلل باللون الأخضر الجميل الى صالة حديثة، تضيئها القناديل مختلفة الأشكال والألوان، مما زادها رونقاً. فوجدت نفسها تقف الى جانب طاولة رئيس القائمين على خدمة الرواد. وعند ظهورها، وقف بأدب. سألته عن جيرد، ولكن من قبل ان تسمع الجواب، كان رجل يشقّ طريقه نحوها تحت الاضواء الخافتة. رجل طويل القامة، داكن اللون رجل لا يمكن ان تخطئه أبداً. انه جيرد.

ـ شكراً يا لويجي، الآنسة معي.

احنى لويجي رأسه بأدب وصمت.

ـ آسفة لأني تأخرت. حسبتك ذهبت...

قاطعها جيرد:

ـ من المستحيل أن أفعل ذلك. تعالي طاولتنا هناك. يمكننا ان نتناول بعض الشراب، قبل ان نختار ما تريد أن تأكل.

بدا الارتباك على كاترين وهي تبتسم له. وتسير حيث يقودها. انها تدرك انه يراقب كل حركة من حركاتها. فكانت تحاول ان تهدىء من عواطفها. لقد بعثت رؤيته ثانية القلق الى نفسها. وتحولت عيناها الى وجهه بافتتان لم تتمكن من اخفائه.

لكن يبدو انه لم يكن ينظر اليها. لقد كانت نظراته تتجاوزها الى الطاولة التي يقودها اليها. كانت هناك امرأة. امرأة شابة، تبدو انها تكبرها ببضع سنوات فقط. نحيلة، سمراء، ناعمة الملامح.

التفتت الى جيرد، ظنت انها مخطئة، وليست هذه طاولتهما. ولكن تبدد شكها عندما سمعت صوت جيرد يقول وقد احنى رأسه بأدب:

ـ اسمحي لي أن اقدم لك ارملة اخي. ليزا، هذه كاترين شقيقة فالنتينا.

مدّت ليزا يدها نحوها وهي تقول:

ـ انا سعيدة بلقائك يا كاترين. اخبرني جيرد عن كل ما فعلته من أجل ابني. وأنا حقاً، شاكرة لك فضلك.

تناولت كاترين اليد الممدودة اليها مصافحة، وقالت:

ـ ليس هناك ما يستحق الشكر.

جلست كاترين على الكرسي الذي سحبه جيرد لها، وهي لا تكاد تصدق ان هذه المرأة يمكن ان تكون والدة غلين. فهي تبدو أصغر من ذلك بكثير. وأصغر من ان تكون ارملة ايضاً. وهذا خالجها شكٌ في نظرة ليزا الى جيرد، وشعرت انها لا يمكن ان تكون نظرة ارملة الى شقيق زوجها فقط. ثم سألتها كاترين:

ـ هل رأيت غلين سيدة ليزا؟

ـ نعم ذهبنا اليه من المطار مباشرة.

ـ كيف حاله؟

ومن قبل ان تستطيع ليزا الاجابة، أجاب جيرد:

ـ رأيناه كئيباً جداً.

ـ لا تقل هذا يا عزيزي (تدخلت ليزا) ستظن كاترين، ان غلين لم يكن سعيداً برؤيتي. وأنت تعلم العكس.

ردّ جيرد عليها بسرعة:

ـ كاترين ليست سخيفة. فهي تعرف حاله اكثر من أي شخص آخر. ليزا، يجب ان نواجه الحقيقة... ان نقدّر وضع غلين وحالته شيء، وان نتفاءل خيراً، هو شيء آخر.

امسكت ليزا بذراع جيرد بشيء من الدلال وهي تقول:

ـ لا شك عندما يعود غلين الى المزرعة، عندما يستطيع ان يسير على قدميه، ويحسّ بالهواء العليل يداعب وجهه...

قاطعها جيرد بصراحة:

ـ أتراني الاعب أطفالاً؟ لم لا تكوني واقعية، ليزا؟ انت تعرفين ان غلين غادر موزباي، لانه لم يكن مغرماً بالمزرعة، ولا بأعمال المزارع.

تغاضت ليزا عن الاهانة التي لحقت بها، وقالت:

ـ جيرد، هذا ليس حقيقي. على أية حال فان غلين يحتاج لقضاء بعض الوقت هناك، ليتمتع بالهواء الطلق. وسوف يعود اليه بصره عندما يعود الى بيته.

أحنت كاترين رأسها لئلا تنظر الى المرأة الاخرى عندما كان جيرد يجيبها:

ـ ليزا، غلين سوف لا يرى شيئاً قبل مرور بضعة أسابيع، أو بضعة شهور. ولكن سنأخذه معنا، لان ليس لدينا فكرة أخرى. ومع ذلك فعلينا ان نعرف رأيه اولا.

تمنّت كاترين لو أنها كانت بعيدة عدة أميال عن هذا المكان، عندما التفت اليها جيرد، وبان الارتباك على وجهها تحت نظراته الثاقبة.وجه اليها كلامه:

ـ كاترين، غلين يريد ان تذهبي معنا الى المزرعة. ولما أخبرته انه لا يمكنك ترك الوظيفة، أصرّ، وقال انه بحث معك الأمر، ولم يكن لديك أي اعتراض...

ـ أنا... أنا...

لم تستطع كاترين ان تقول شيئاً، وحبست الكلمات في صدرها. حقاً ان غلين لمح الى انه يتمنى ان ترافقه الى المزرعة. ولكنهما لم يبحثا الأمر جدياً. وسمعت ليزا تقول باختصار:

ـ من الواضح ان كاترين لا تعرف شيئاً عن الموضوع. في أية حال،

فالفكرة من أصلها سخيفة. غلين يحتاج الى مُمرّضة وليس الى صديقة.

ـ لكنك نسيت أن غلين يعرف ان فالنتينا ممرضة. وليست الفكرة سخيفة كما تظنين. فان غلين يحتاج الى راحة، الى نقاهة، ولكن هل يتحقق له هذا برفقتنا أنا وأنت فقط؟

قالت ليزا باحتجاج:

ـ هناك أبوك.

وعند هذه النقطة تدخلت كاترين:

ـ أنا... أنا لا أعرف ماذا قال لك غلين يا سيد جيرد...

ـ جيرد، من فضلك.

قال ذلك باصرار. أما كاترين فقد احمرّ وجهها وتابعت:

ـ حسناً أنا لا أستطيع مرافقته الى كندا... الفكرة مُضحكة.

ارتعشت شفتا جيرد وهو ينظر اليها قائلا:

ـ هل هي مضحكة حقاً؟ حتى ولو كانت تضع حداً بين شفاء غلين أو عدمه؟

نظرت ليزا الى كاترين نظرة غامضة وتدخلت:

ـ جيرد، لا تكن مأساوياً الى هذا الحدّ. ماذا يمكنها ان تفعل اكثر مما نفعله نحن؟

قال جيرد بوضوح:

ـ حسناً، انها الجسر الذي يربط بين حياته هنا والحياة التي نجبره عليها في المزرعة. ألا تعرفين انه يعلّق على فالنتينا آماله ومستقبله؟

تدخلت كاترين:

ـ ولكني لست فالنتينا.

ـ غلين يظن أنك هي. وهذا هو المهم.

أخذت كاترين تفكر، هل يمكن ان يخطر ببال جيرد، أنها من الممكن ان تتنازل عن وظيفتها، لترافقهم الى مكان مجهول في أواسط كندا؟ الموضوع بأكمله يتنافى مع المنطق. الى جانب ذلك ماذا سيكون رأي سيمون؟

وكأن جيرد طالع افكارها فقال:

ـ أنا لا أطلب منك أن تتركي حياتك هنا وعملك، وما يهمك فيها من أمور. ولكن كل ما أطلبه أن تحصلي على اجازتك السنوية وترافقينا.

وتأكدي أنك ستعجبين بالمزرعة. ولن تندمي مطلقاً على قيامك بهذه الرحلة، خصوصاً وأننا هيئنا لك جميع أسباب الراحة الممكنة هناك.

قلبت كاترين شفتيها وقالت:

ـ جيرد، غلين وقف على قدميه، ويمكنه ان يتحرّك. انت تقول انه غارق في مأساته ولن يكتشف حقيقتي. ولكن متى عاد الى بيته، وابتدأ يستعيد ثقته بنفسه، فانه عاجلا سيكتشف انني لست فالنتينا.

ـ كيف؟

ـ أولا وهو الأهم، شعري. شعر فالنتينا قصير وأجعد، وأنت تعرف ان شعري ليس كذلك.

تدخلت ليزا:

ـ يمكنك ان تقصي شعرك. انها فعلا أمور سخيفة، وانا لا افهم كيف تعالجان المسألة. أنا لا أظن ان الشعر القصير والمتموّج فيه حلّ للمشكلة.

ـ أنا لا أريد ان اقص شعري.

تجاهل جيرد أرملة أخيه ووجه كلامه الى كاترين، وقال بهدوء:

ـ يمكنك ان تلبسي شعراً مستعاراً. ولا أظن ان هناك مانعاً عندما يكون ارتداؤه ضرورياً. في أي حال، دعونا الآن نتناول طعامنا، ويمكننا ان نكمل مناقشتنا فيما بعد.

كان الطعام شهياً، ولكن لم يكن لدى كاترين قابلية لتناوله، فقد احست بشيء من الخوف من الجوّ المشحون الذي يخيّم على المائدة.

تناولت كاترين فنجاناً من القهوة بدل الحلوى. وهي تنتظر بفارغ صبر ان يستكمل جيرد المشاحنة، ولكنه لم يفعل. بينما اخذت ليزا تتحدث بكل لطف وأدب مع كاترين بأمور لا علاقة لها بالمشكلة الاساسية مطلقاً.

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر تقريباً، عندما غادروا المطعم. وجيرد كما في المطعم لم يتحدث في السيارة الا قليلا.

اخترقت ليزا صمته، وهي تضع يدها على كتفه من غير كلفة، وسألت:

ـ عزيزي جيرد. الا تشعر انك كنت غير لطيف معي؟ أنا أظن ان كاترين قامت بمجهود جبّار من أجل غلين. وآن لها ان تعيش حياتها.

أحنى جيرد رأسه من غير ان يجيب بشيء. بل كانت نظراته تنصب على كاترين، نظرات لوم وعتاب، جعلتها تحس بشيء من الخوف وعدم

الارتياح.

كان غلين في انتظارهم. وكم كان مزعجاً لكاترين عندما أحاطها بذراعيه، لكنها تخلصت منه بلطف، وبقي ممسكاً بيدها وهو يحدث والدته:

- أماه، قولي الحقيقة، أليست جميلة؟ انني مجنون بها، ولولاها ما كنت أدري ما الذي كان سيحلّ بي في تلك الأسابيع الماضية.

تصنعت ليزا ابتسامة باهتة، وهي تجلس الى جانب ابنها. مما اضطره أن يترك يد كاترين. ثم قالت:

- ولدي سوف تعود معنا الى البيت، بيتك. وكل ما مرّ بك سيبدو كحلم مخيف مضى. وسوف تتغير جميع أحاسيسك هناك.

سحب غلين نفسه بعيداً عنها، وأخذ يمشي بخطوات غير ثابتة عبر الغرفة. رأت كاترين طاولة طعامه في طريقه، ولكن قبل ان تتمكن من الوصول اليها لتبعدها، كان قد تعثر بها.

تطلعت كاترين الى جيرد بألم، وهي تعيده الى كرسيه، ثم رد على كلام أمه:

- نعم سوف أحس بالاختلاف. فالاختلاف الوحيد الذي سأحس به، هو ان هناك مساحات شاسعة يمكن ان أقع فوقها وأشياء كثيرة يمكن ان أتعثر بها!

وقفت كاترين بجانب كرسيه وسمحت له ان يمسك بيدها، وقالت:

- غلين، لن تقع. صدقني سوف تتحسن، ولكن يحتاج ذلك الى بعض الوقت والى بعض الصبر.

حرّك غلين رأسه وتطلع نحوها بعينيه الزرقاوين غير المبصرتين وقال:

- فالنتينا، اني خائف.

أحست كاترين أن قلبها يكاد ينفطر لآلامه، ولم تعد تحتمل، وقالت:

- أريد ان أذهب الى البيت.

أعاد غلين كلماتها:

- أريد ان أذهب الى البيت، ولكن ليس وحدي.

قالت الأم:

- لن تكون وحدك...

لكن هذه المرّة نظرة واحدة من جيرد اسكتتها.

اما غلين فقد أضاف:

- اريدك أن تأتي معي فالنتينا. سوف تأتي، أليس كذلك؟ اذا لم تفعلي، فلن أذهب انا أيضاً.

٦ - رحلة غير متوقعة

عندما وصلوا الى الفندق، بعد خروجهم من المشفى، نزلت ليزا هناك. وتابعا الدرب الى بيت كاترين. وكالمعتاد اصر على مرافقتها الى الداخل.

- انت تعرف ان هذا سيحدث. هذا ما سيفعله غلين، اليس كذلك؟ يا لك من خسيس.

واجهت كاترين، جيرد بهذه الحقيقة بعد ان دخلا الى غرفة الجلوس. وأدارت ظهرها نحوه، لتخفي الدموع في عينيها. ليتها لم تقل شيئاً، ليتها أعطت نفسها فرصة تفكر فيها بما تقول، حتى لا يزل لسانها بما تندم عليه.

هز جيرد كتفيه بلا مبالاة. وألقى بنفسه على الأريكة. عادت ونظرت كاترين اليه بعد ان مسحت دموعها، وهي تحدث نفسها، عجيب هذا الانسان، كم من السهل عليه ان يتكيف مع ما يحيط به، وأخذت تقارن بين شخص يطير فوق الأطلسي في طائرته الخاصة، وبينه وهو مستلق بدون اهتمام على أريكة بسيطة في شقة متواضعة.

بعد برهة صمت، قال جيرد:

- حسناً، أنا اعرف ما كان سيفعل غلين. وأنت ايضاً تعرفين طالما بحث الموضوع معك.

دارت كاترين في مكانها وهي تقول:

- هو لم يبحث الموضوع معي. فقط قال انه لا يستمتع بالعطلة في المزرعة. هذا كل شيء... اني اقسم...

- حسناً، حسناً، لا تكوني عصبية الى هذا الحد. ولكنك ستسرين بزيارة المزرعة...

- لا، لن افعل، لأني لست ذاهبة.

هب جيرد على قدميه واقفاً وقال:

- ماذا تعنين؟ ماذا تعنين انك لست ذاهبة؟ انت اخبرت غلين انك ستفعلين.

وضعت كاترين يداً مرتجفة على رأسها وهي تقول:

- انا اعرف ماذا قلت لغلين، ولكني لا استطيع. يجب ان تعرف ذلك. ارجوك، جيرد لا تنظر الي هكذا. انا لا استطيع ان استمر في هذه اللعبة.

- لم لا؟

خطا جيرد خطوة الى الأمام، ومع انها كانت طويلة القوام، كان عليها ان ترفع رأسها حتى تنظر اليه وأجابت:

- لأني لا استطيع!

- يمكنك ان تأخذي اجازتك السنوية. او اجازة بلا راتب، ولقد اخبرتك اني سأعوض عليك كل الخسائر.

- لا ليس هذا هو السبب.

- بحق السماء ما هو اذن؟

نفذ صبر جيرد فأمسك كتفها بشدة وتابع:

- انا لا اصدق انك لا تدركين ما تقولين. اذا لم تأتي معنا، غلين سيرفض الذهاب، وهذا سيحطم قلب امه.

كاترين تشك في ان هناك شيء يتعلق بغلين قد يحطم قلب ليزا، اما ما يتعلق بجيرد، فنعم. كان واضحاً من الطريقة التي تعامله بها. من طريقة تصرفها نحوه. ان قرابتها تجاوزت حدود الصداقة والالفة. المحبون فقط يتصرفون هكذا. وخشيت كاترين ان يكون اهتمام جيرد بليزا، اكثر منه بابن اخيه. فأصرت على موقفها وقالت:

- اني آسفة.

قفز من مكانه غاضباً، وهو يشد على كتفها، حتى احست ان اصابعه غرزت اللحم ووصلت الى عظامها.

- انه سيمون. اليس كذلك؟

- لا، سيمون ليس هو السبب. وان كنت تريد ان تعرف السبب فانه...

فجأة ومن غير ان تكمل عبارتها، شدها نحوه قبل ان تتمكن من الاعتراض. وضمها اليه، ثم ابعدها عنه بسرعة، وهو لا يزال ممسكا بكتفيها. رفع شعره المتساقط على جبينه بأصابع مرتعشة، وقال:

- كاترين آسف، انا لم اقصد... آسف. لكن، لكنك ستذهبين معنا.

بالتأكيد، كان هناك اكثر من سبب في رأي كاترين جعله يفعل ما فعل. خصوصاً انها لم تمثل دور البريئة، لتقول له انه الملام. فهي نفسها كانت لديها الرغبة في ذلك، لو ارادت ان تستسلم لعواطفها. لكنها لن تفعل. وأصرت قائلة:

- لا استطيع الذهاب. قلت لا استطيع.

- بحق السماء. كاترين ان غلين يحتاج اليك. كلنا نحتاج اليك...

زفرت كاترين بحرارة، وابتعدت عنه، وقالت:

- اظن انه من الأفضل ان تذهب...

- كاترين!

- لا استطيع الذهاب معك. ولا يمكنك ان تجبرني على ذلك.

ولكن عندما نظر اليها نظرة اخيرة حزينة، قبل ان يغادر الشقة، عرفت انه لن يستسلم بسهولة.

كان عليها ان تذهب الى المشفى ذلك المساء. حتى ترى غلين للمرة الأخيرة، وتحاول الا تغضبه. فاتصلت بسيمون هاتفياً تطلب منه ان يوصلها الى هناك.

فأجاب سيمون بحدة:

- ثم ماذا افعل؟ اقف خارجاً انتظر خطيبتي المرتقبة تلعب دور الممرضة، لصبي ثري فاسد طائش؟

- لا يا سيمون، غلين ليس فاسداً. وسأبقى عنده فقط مدة ساعة. الم نتفق سابقاً على ان تأتي لتأخذني من هناك؟

- اذن سآتي الى هناك في الوقت المحدد. في الساعة الثامنة، اليس كذلك؟

- لا تتعب نفسك، سوف استقل سيارة النقل العمومية، ذهاباً واياباً. وبهذا سيكون لديك الوقت الكافي، لتستريح بقرب والدتك.

بدا صوت سيمون، كمن جرحت مشاعره وقال:

- لست بحاجة لاتخاذ مثل هذا الموقف. ولا يمكن ان تتوقعي ان العب دور السائق كلما احتجت الى ذلك.

قالت كاترين متأثرة بكلامه:

- سيمون، انها اول مرة اطلب منك ان توصلني. وأنت تعرف ان زياراتي كانت ضرورية. غلين اعمى. الا يمكنك ان تتخيل ما يحس به؟ وما احس به أنا ايضاً؟ وأنا اعلم ان اختي هي المسؤولة عن ذلك.

قال سيمون وهو يحاول ان يخفي سخطه:

- كما قالت والدتي، يبدو ان اختك تعني بالنسبة اليك، اكثر مما اعني انا.

احست كاترين بتعب شديد. ثم تذكرت جيرد ومشاعرها نحوه. فهزت رأسها وقالت:

- آه سيمون. ربما انت على حق، لعله من الأفضل ان نعطي انفسنا فرصة اطول للتفكير.

- ماذا تعنين؟ (قال قلقاً) الأني أبديت بعض الانتقاد؟ هذا لا يعني ان بعيداً الى النهاية.

- لا، ليس أنا... اني آسفة. انا لم اقصد ان اؤذي مشاعرك.

- لم تؤذي مشاعري، ولكنك اغضبتني. على كل فهذا ليس جديداً علي. ليست هذه اول مرة تغضبينني فيها بسبب فالنتينا. وأحسب انها لن تكون الأخيرة.

- ماذا تعني، انني اغضبتك بسبب فالنتينا؟

بصعوبة اخرج سيمون الكلمات من فمه:

- من الطريقة التي تحملين من نفسك مسؤولة عنها. اعني منذ كانت صغيرة وأنا اغضب عندما كنت اجدك تتعقبينها لتخرجيها من مازق او آخر، كاترين انت لست امها. وأبوك هو المسؤول عنها. هذا ما اعرفه.

ذهلت كاترين. لم تكن تتوقع مطلقاً ان يعترض سيمون على عنايتها بفالنتينا. ثم قالت:

- اظن ان الحديث قد طال بيننا سيمون. ومن الجلي ان كلينا يحتاج الى بعض الوقت للتفكير. سوف اتصل بك اذا توصلت الى حل. ولا اظن ان نبش الحقائق الماضية يساعد على حل المشكلة.

- لا اظنك جادة يا كاترين. هل تعنين اننا لن نتقابل بعد الآن؟

- بل انا جادة يا سيمون.

- لا لن ادعك تفعلين هذا. انهما جيرد وغلين، هما السبب. اليس كذلك؟ لقد تظاهرت انك فالنتينا، فماذا يريدان ان تفعلي اكثر؟ تذهبين معهم الى كندا؟

قالت كاترين بثبات:

- ليس عندي ما اقوله يا سيمون. وكل شيء قمت به من اجل غلين كنت سعيدة به. ارجو الا تنسى ذلك.

بعدما قطعت المكالمة، كانت تخشى ان يتصل بها سيمون ثانية. ولكن عندما تهيأت للخروج وبقي جرس الهاتف صامتاً، ايقنت انه لن يفعل. نظرت الى ساعتها، وعرفت انها قد تتأخر عن المشفى. ومن دون ان تتناول اي طعام، استقلت سيارة عمومية لتصل في الوقت المعتاد.

وجدت غلين وحيداً. فحيته التحية المعتادة وجلست الى جانبه. قال مباشرة:

- حسناً، ما هو قرارك؟ هل انت آتية معي؟ فالنتينا اذا لم تفعلي، لا اعلم ماذا . . .

تنهدت كاترين تنهيدة عميقة وقالت:

- آه يا غلين، لا تقل شيئاً. انت تعرف انني لا استطيع. انت تعرف انني في منتصف المدة التدريبية.

تمتم غلين:

- فالنتينا، الست اكثر اهمية في نظرك. اني محتاج اليك. لم افكر مطلقاً اني قد اقول مثل هذا الكلام لأي مخلوق، ولكني اقوله لك. وعندما اعاق، عندما يعود الي بصري، لن انتظر اكثر فسوف اربط مصيري بمصيرك.

- غلين. . .

- حسناً، حسناً (قاطعها قائلاً) ما كنت اريد ان اقول هذا، ولكن الا تظنين انك مدينة لي بذلك؟

اغمضت كاترين عينيها بيأس وتمتمت:

- غلين. . .

- الآن اصغي الي، انا لم اقحمك في شيء. ولكن هذا لا يغيّر الحقيقة،

والحقيقة انك كنت تقودين السيارة. اليس كذلك؟

رفعت كاترين عينيها نحو السماء، وقالت محتجة:

- ما كان عليك ان تدعني افعل ذلك. . .

- هذا صحيح، ولكني فعلت. على الأقل يمكنك ان تأخذي اجازة، كما قال جيرد. وبعدها يخلق الله ما لا تعلمون.

هزت كاترين رأسها. بالتأكيد يمكنها ان تحصل على اجازة. ولكن بعد الذي حصل بعد ظهر هذا اليوم، انه اكثر من الجنون ان تفكر بالعيش في البيت نفسه مع ذاك الرجل الذي استطاع ان يثير كوامن عواطفها. وهو في الوقت ذاته على علاقة بأرملة اخيه. واقحامها في هذه المشكلة العويصة يشكل خطراً عليها. ثم عادت ونظرت نحوه قائلة:

- غلين، الأمر ليس بهذه السهولة.

وهو يصغي الى نغمات صوتها، وقف عن كرسيه واتجه نحوها، يبحث عن ذراعها. ثم ألقى بذراعه على كتفها وقال بوضوح:

- لماذا ليس سهلاً؟

جمدت كاترين مكانها، حركة واحدة من يده نحو شعرها، وينتهي كل شيء. كان عليه فقط ان يلمس، فيحل الشريط الحريري الذي يكلل رأسها بهالة عنبرية اللون، ليعرف ان هذا ليس شعر فالنتينا. وأدركت في هذه اللحظات انها لا تريده ان يكتشف حقيقتها. وخرجت الكلمات مسرعة من بين شفتيها حتى تتجنب اكتشاف الحقيقة:

- حسناً، سوف آتي معك، ولكن فقط لمدة اسبوعين.

- لا، اربعة.

- وهناك حل وسط.

ابدى هذه الملاحظة صوت جاف جاء من ورائهما. فتقدم غلين ليحيي عمه ووالدته.

- حسناً، ثلاثة اسابيع (قال غلين موافقاً) هل سمعت ذلك يا امي، فالنتينا آتية معنا. اليست هذه اخبار عظيمة؟

- عظيمة!

رددت ليزا هذه الكلمة بغير حماس. ولما التقت عينا كاترين بعينيها السطحيتين، عرفت ان هناك شخص لا يرحب بها في شلالات موز.

تأكد جيرد انها قبلت ذلك من اجل غلين. اما هي فقد شعرت انه من الممكن ان ما حصل بينها بعد ظهر هذا اليوم قد ينمو ويزيد. ولذا فقد عزمت بتصميم، وهي تنظر اليه نظرة باردة عدوانية، ان تنسى نهائياً تلك الحادثة الخاصة.

مغادرة انكلترا كانت اسهل مما توقعت. ولا شك ان جيرد هو الذي سهل الأمور. فقد ذهب الى رئيسها، وطلب لها اجازة لمدة اسبوعين، بالاضافة الى اسبوع آخر من غير راتب. ووافق المدير على ذلك دون تعقيد. لا شك ان جيرد شخصية مرموقة.

لم يبق عليها الا ان تطوي صفحات حياتها السابقة، وتقوم بالترتيبات اللازمة مع جارتها لتنتبه الى شقتها خلال غيابها. وآخر ما كانت تفكر فيه هذه اللحظة هو سيمون، فقد يأتي متسكعاً حول بيتها ويكتشف ما تفعله. الأمر الذي طالما لامها عليه. ولكنها بررت لنفسها ذلك بأن ما تقوم به هو عمل وظيفي. بالاضافة الى انها لم تزر كندا من قبل، وكذلك لم تعبر المحيط. وفكرة قضاء ثلاثة اسابيع في اواسط كندا الغربية، في تلك المساحات الطلقة الشاسعة، راقت لها كثيراً بعد سجن المدينة. ولكن لم يغب عن ذهنها مطلقاً ما يمكن ان تولده هذه الرحلة، فشعرت بكثير من القلق.

في التاسعة من صباح الأربعاء، كانت سيارة عمومية تنتظرها امام البناء لتقلها الى المطار. ولما وضع السائق حقائبها في السيارة، احست برجفة خوف من شر مرتقب. الحقيقة انها تقوم بمغامرة خطرة، مهما كانت نظرتها لما تفعله. ومع ان الشعر المستعار الأشقر كان في الحقيبة فانها لم تشعر بالأمان.

كانوا ينتظرونها في المطار، وكانت على المدرج طائرة خاصة ستقلهم الى حيث يقصدون. سألها غلين:

- هل اعجبتك الطائرة؟ آلة قديرة سرعتها خمسمائة وخمسون ميلاً في الساعة تقريباً. سريعة كبعض الطائرات الكبيرة.

بقيت كاترين صامتة. فسفرها في الطائرات لم يتجاوز الرحلة الى اسبانيا. وهذه الطائرة تبدو في نظرها اصغر من ان تستطيع عبور الأطلسي.

اما جيرد فقد انضم اليهم بعدما انهى محادثته مع رجل آخر كان يقف

معه بعيداً. وسأل:

- هل اتم على استعداد؟

- اظن هذا.

اجابت كاترين وهي تحتفظ بثباتها. ولكنها كانت تحس بقربه، وبالحقيقة التي يبدو انه نجح في ابعادها عن ذاكرته، من غير جهد ظاهر. التفت جيرد الى الرجل الذي كان يحادثه وقال مبتسماً:

- حسناً يا فنس يمكننا الرحيل.

ليزا أصرت على مساعدة ابنها عبر المدرج للوصول الى الطائرة والصعود اليها، مما ترك المجال لجيرد كي ينفرد بضع لحظات بكاترين وقال:

- لا تكوني عصبية، ستكون الرحلة ممتعة ومريحة.

- لا تقلق علي. سأكون بخير. المهم ان يكون غلين على ما يرام.

- حقاً...

مرت بها لحظات صمت. وعندما وضعت قدمها على اول درجة من سلم الطائرة، امسك بها يحتجزها برهة، وقال:

- اشكرك على مجيئك. لم يسعفني الحظ لأشكرك من قبل. واني لأقدر هذا منك، خصوصاً بعد سلوكي يوم امس الذي كان سينسف كل شيء.

صعدت كاترين الى الطائرة من غير ان تجيبه. وهي تقول لنفسها، ان ثلاثة اسابيع برفقة هذا الرجل، ستحمل عواطفها عناء لا يطاق.

بدا داخل الطائرة كقاعة رحبة فاخرة، بأرائكها المريحة، وسجّادها الثمين. وعندما جلست الى جانب غلين اخبرها ان هناك غرفة للنوم، خاصة بجيرد، يأوي اليها في حالة التعب، أو عندما يسافر ليلاً.

قدمها جيرد الى قبطاني الطائرة اللذين يرافقانه. فخاطبها احدهما وهو فنس بطريقة ودية:

- يمكنك بعد حين ان تأتي الينا لتري كيف نقود الطائرة.

عندما ابتدأت الطائرة ترتفع وأخذت تحلق في سماء لندن المظلمة، لاحظت كاترين ان اظافر ليزا كانت تنغرز في يد جيرد. فاستخفت بنفسها للرعشات الخفيفة المجنونة التي انتابتها. ولكن سرعان ما كبتت مشاعرها.

كانت الغيوم تحتضنهم برقة وحنان، ترافقهم كيفما اتجهوا الى ان اطل عليهم نور الشمس المشرقة، فودعتهم تلك الغمائم ببعض الدموع وغابت

عن الأنظار.

قدم لهم المضيف الشراب والقهوة. وفي وقت الظهيرة، قدم لهم طعام الغداء الذي اعترفت كاترين انه كان لذيذاً شهياً.

لقد امضى جيرد الجزء الأول من الرحلة، يجلس الى احدى الطاولات منكباً على دراسة بعض الملفات. وما كان يزعجه سوى ليزا بين الحين والحين، تقطع عليه حبل استغراقه في اوراقه.

اما كاترين فقد راحت في نوم هادىء لذيذ اراحها من عناء اليوم السابق. لم تدر ان طال نومها أو قصر. ولكن ما تدريه انها عندما استيقظت، بدت لناظريها معالم الحياة، فاستفسرت قائلة وهي تلتفت الى غلين:

ـ هل وصلنا؟

ضحك غلين بلطف من سذاجتها وقال:

ـ هذه جزيرة ريكجافيك آيسلاند. حيث سننزل، فقط، من اجل تزويد الطائرة بالوقود.

حدقت من النافذة غير مصدقة وقالت باستغراب:

ـ ما كنت اعرف اننا سننزل في آيسلاند.

وعندما غادروا مطار ريكجافيك، قال جيرد:

ـ الآن سننعطف نحو الشمال بالقرب من المنطقة القطبية الشمالية، ثم نطير جنوباً فوق غرينلاند، والمقاطعات الشمالية الغربية، حتى نصل الى موزباي.

رفعت كاترين حاجبيها وقالت:

ـ لكنني كنت اظن اننا سنطير الى كالجري.

ـ لنا مطار خاص في موزباي وهو يبعد بضعة اميال عن املاكنا.

دخل جيرد الى قمرة القبطان، وبعد لحظات ظهر فنس ودعا كاترين الى القمرة. فرأت جيرد يجلس على كرسي القبطان يتبادل الحديث مع زميل فنس عن قيادة الطائرة. ولما دخلت هب واقفاً وقدم لها مكانه.

كانت في غاية الدهشة، احست وكأنها تخطو في الفراغ. قالت في نفسها ان تجلس في غرفة الركاب شيء معقول، على الأقل يمكنها ان تخدع نفسها بأنها تقف على الأرض. اما في هذه القمرة، فأحست ان لا شيء يفصل

بينها وبين تلك المساحات العميقة، وشعرت كأن الشلل يتسرب الى اطرافها من الخوف.

احس جيرد كأنها سمرت في مكانها. فكانت شاكرة لليد التي امتدت لمساعدتها، وجلست على الكرسي وهي تشعر بضعف ينتابها. ولما ثبت الحزام حول خصرها، قال:

ـ لم يطلب منك احد ان تقودي الطائرة. ولكن على الأقل تمتعي بهذا الاحساس.

وبالفعل تبددت مخاوف كاترين. وأحست بكثير من السرور، وهي تعرف انها على ارتفاع عدة اميال فوق سطح الأرض. ولما عادت الى مكانها، قال غلين:

ـ انها مسألة بسيطة، اليس كذلك؟ هل تعلمين ان هناك طائرات تطير وتهبط آلياً؟

تدخلت ليزا وهي تنظر الى لون اظافرها:

ـ عندما يحدث هذا، سأتوقف عن السفر في الطائرات.

حلقت الطائرة الصغيرة مدة ساعتين تقريباً، فوق مساحات تتناثر فيها آلاف البحيرات، تتألق كالمرايا. وسر كاترين ان غلين غط في النوم، حيث ترك لها مجالاً لتستمتع بهذه المناظر الأخاذة من غير ان تشعر بالذنب.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، ولكنها لم تشعر بالتعب، لأن الفترة التي نامت خلالها كانت كافية لتعيد اليها النشاط. وانما كانت تترقب الوصول بفارغ صبر.

مساحات ومساحات من الغابات العذارى تمتد بين البحيرات وأشجارها الخضراء، تبدو معتمة يكتنفها الغموض، بعدما أخذت الشمس بالغروب. وأدركت كاترين لو ان الطائرة سقطت بهم هناك ـ لا قدر الله ـ فقد يمضي عدة اسابيع قبل ان يهتدي اليهم احد.

لقد رأت مدينة موزباي الصغيرة من الفضاء تمتد على شاطىء بحيرة موز، لم يكن لبيوتها طابعاً موحداً، فهي تختلف عما ألفته في المدن الصغيرة في انكلترا.

عندما هبطت الطائرة على ارض المطار، ألقت كاترين نظرة ذهول على القمم الأرجوانية التي تمتد الى مسافات بعيدة، وخيال هذه المشاهد

الخلابة، أحست كاترين بالخشوع.

تمت بسرعة المعاملات التي يتوجب انجازها للنزول الى الأرض، فجيرد وغلين مرموقان في المنطقة، كما يبدو.

وما ان صاروا خارج المطار، حتى بانت الدهشة على وجه كاترين. فهي لم تعد ترى شيئاً سوى مساحات قاحلة. فأين البحيرات التي كانت تراها وهي محلقة في الفضاء؟ اين غابات الصنوبر التي كانت تمتد اميالاً وأميالاً؟ فكل ما تستطيع رؤيته الآن هو مسافات معبدة ولا شيء وراءها سوى الظلال التي عكستها ظلمة المساء.

٧ـ أهلاً وسهلاً في موزباي

ظهرت سيارة كبيرة تسرع على طول الطريق بمحاذاة المساحة المعدة لوقوف السيارات، متجهة نحوهم. ثم وقفت أمامهم. نزل منها شاب مراهق، نظر الى جيرد نظرة فيها كثير من الاحترام والأسف، وقال:

ـ أنا آسف، لأني تأخرت ولكني لم أعرف انه يتوجب عليّ ان آتي لملاقاتكم، الا قبل نصف ساعة. هل كانت الرحلة موفقة؟

ـ لقد كانت لطيفة يا تروي. أين ابي؟ انه يعرف متى سنصل.

احمرّ وجه تروي خجلا وقال:

ـ أظن أنه لا يعرف الوقت بالضبط.

ثم حمل الحقائب ووضعها في القسم الخلفي من العربة، وتحول الى غلين يسأله عن حاله.

قاد جيرد السيارة وإلى جانبه ليزا، ذراعها ممدودة خلف مقعده. أما كاترين فقد حشرت نفسها بين غلين وتروي في المقعد الخلفيّ. ولم تستطع في جلستها تلك الا ان تلاحظ أصابع ليزا تعبث بياقة جيرد، مما جعل الدم يغلي في عروقها.

مرة واحدة التقت عينا كاترين بعينيه من خلال المرآة الأمامية، ولكنها لم تفهم منها شيئاً، فقد كانتا تضيقان من انعكاس انوار السيارات الآتية عليهما.

بعد ان ابتعدا مسافة غير قليلة عن المطار، أخذت مظاهر الحياة تبدو لها أوضح. رأت عدداً من البيوت غير المسوّرة تبعد قليلا عن جانبي الطريق، ونباح الكلاب من حولها يعكّر هدأة الليلة، والأنوار تسترق النظر من بين

شقوق النوافذ، فيتسلل بعض شعاعها ليختلس من المساء شيئاً من عتمته، فترى سيارة كبيرة تقف أمام مدخل كل بيت.

وعندما انعطفت بهم السيارة الى طريق فرعي، قال غلين لها: من هنا تبدأ أراضي فريزر.

لم يتكلم جيرد سوى كلمة أو اثنتين مع أرملة أخيه اثناء الطريق. وبقي طوال الوقت صامتاً لا يفارقه العبوس. وعزت كاترين ذلك لعدم مجيء أبيه لاستقباله. وقالت في نفسها لعل هذا الأب قد تخلّف عن ملاقاة ولده لشيء هام. كما قد يكون غضب الابن لأمر أهمّ.

قطعت السيارة بهم مسافة طويلة بعد ان تركوا الشارع العام. وظنت ان جيرد يقودهم في طريق دائرية لأمر ما في نفسه. وبعد ان اجتازوا مساحات شاسعة من الأراضي، بدأت الأضواء تتلألأ من هنا وهناك كأنهم في وضح النهار. وقف جيرد فجأة، ونزل تروي ليفتح أمامهم البوابة العريضة.

وعادت السيارة الى المسير عبر تلك البوابة في طريق عريض. مرّوا بعدة أكواخ وعدد كثير من الاسطبلات، ثم ببناء طويل لا تكاد ترى نهايته، قال عنه جيرد انه مبنى خاص بالعمال.

بعد قليل وقفت السيارة أمام بناء ضخم، أقيم على مساحة هائلة من الأراضي، يدل على الفخامة والترف. مما جعل كاترين تنظر مشدوهة الى مبنى المزرعة هذا، وهي تسمع غلين يقول:

ـ أهلا بك في موزباي.

وقفت كاترين في الجناح الكبير المعدّ لاقامتها، وهي مذهولة بما يحيط بها من روعة وجمال. شيء لم تكن تتخيله، وأسباب الترف والرفاهية، لم تكن تحلم بها. لم تعرف شيئاً من قبل عن بيت غلين، بيت في منتهى الأناقة والترتيب، فسيح، رحب، لا تعرف لغرفه عدداً.

وفي الواقع قبل ان ترى الجناح الخاص بها، كان أول ما أدهشها عند دخولها المبنى، القاعة الفسيحة التي تفوح برائحة خشب الصنوبر، الذي كان يحترق في الموقد الكبير. كما لفتت انتباهها الزخارف الجميلة المحفورة على جانبي الدرج المصنوع من خشب البلوط، الذي يفضي الى الطابق العلوي. وكذلك الممرّات العريضة العالية مفروشة بالسجاد المزخرف الثمين. كل شيء كان يدلّ على الفخامة والعظمة، ابتداء من أيدي

الارائك أينما كانت، الى النوافذ المستطيلة التي تطلّ على المزرعة وتكاد تغطي الجدران، تتدلى عليها ستائر مخملية متموجة، يبهر لمعانها الأخاذ تحت أضواء عشرات من القناديل المختلفة الاشكال.

التقت بامرأة طويلة، نحيلة القوام، ذات شعر رمادي اللون، سمراء البشرة تدعى ماريا. وشعرت كاترين ان دماء الهنود تسري في عروق هذه المرأة. ماريا حيّت غلين بمودة، ولكنها استقبلت جيرد بحرارة اكثر. وقالت:

ـ لقد تأخرت، وابتدأت اقلق عليك. ليس على الرجل ان يستمرّ في الطيران ذهاباً واياباً عبر المحيط، كصقر لا يعرف على أية جهة من الجبل يبني عشه.

وزاد في كآبة ليزا، رؤيتها جيرد يأخذ ماريا بين ذراعيه ويعانقها بحرارة مبدداً عن نفسه بعض الغم:

ـ الرجل لن يتنقل بين الاقمار ثانية يا ماريا.

ضحكت ماريا لمزاحه. وتابع جيرد يسأل:

ـ أين أبي؟ أين هو؟

ـ في المكان المعتاد.

وعندما تحرّك جيرد ليبحث عن أبيه، احتجت ليزا قائلة:

ـ جيرد، انا وغلين وصلنا للتو. تناول معنا طعام العشاء على الأقل قبل ان تذهب للبحث عن ذلك الرجل العجوز.

ولكن جيرد، وبعد دقيقة صمت، غادرهم، واختفى في الدرب المؤدي الى خلف البناء، تاركاً ليزا تغلي غيظاً.

يبدو ان ماريا هي التي تدبر وتدير كلّ شيء. طلبت من ليزا ان تعنى بولدها. بينما قادت كاترين الى غرفتها دون ان تلتفت الى اعتراض غلين.

وأما تروي فقد لحق بها وهو يحمل حقائبها.

كان الجناح المعدّ لها يتألف من غرفة نوم وغرفة جلوس وحمّام تتناسق مع بقية غرف المبنى في الرحابة والارتفاع والزخارف والرسوم على الجدران تزيد المكان دفئاً وجمالاً. وهي مبهورة بما ترى، تسير وقدماها تغوصان في طنافس ناعمة حمراء اللون، ورائحة خشب الصنوبر يشتعل في الموقد تعطر المكان.

عبرت غرفة الجلوس الى قنطرة واسعة تكشف عن غرفة نوم فيها سرير

ضخم عالي القوائم تغطّيه ستارة مخملية بنية اللون. وكان الأثاث في الغرفتين لا يقل فخامة وأناقة وجمالاً عن باقي ما في ذلك المنزل من أثاث.

تركتها ماريا، بعد ان أعلمتها ان العشاء سيكون جاهزاً بعد ساعة او اكثر. ولكن قبل ان تخرج علقت مبتسمة:

- لاحظت من معاملة غلين لك، انك تعنين انساناً هاماً بالنسبة اليه.

تكلفت كاترين ابتسامة خفيفة رداً على ابتسامتها وهي تحسّ بالقلق، خصوصاً ان ماريا لا تعرف شيئاً عنها. وشعرت بالعبء الثقيل الملقى على عاتقها.

كان أول ما عزمت عليه، ان تدخل الحمام لتغتسل، فتزيل عنها عناء السفر، وعن نفسها ذلك القلق الذي لا ينفكّ يعبث بها.

تمملت كاترين في المياه الساخنة وقد سرى الدفء في أوصالها، فاسترخت، ولم تستطع ان تحول دون اغماضة قصيرة زارت جفنيها الناعسين.

صحت على صوت نقرة قوية على الباب. فقفزت من الماء مذعورة، وأسرعت الى منشفة الحمام تلتف بها، شكرت الله ان الباب كان مقفلاً. سمعت قرعاً وسمعت كلاماً:

- كاترين بحق السماء، هل أنت بخير؟ أجيبي.

شدهت كاترين، انه جيرد. جنّ جنونها. ماذا كان يفعل في غرفتها؟ لماذا جاء يا ترى. ثبتت منشفة الحمام حول جسمها الذي فرّ الدفء منه، واعترتها برودة كبرودة الموتى. ثم خرجت.

- ماذا كنت تفعلين طيلة هذا الوقت؟

- كنت استحم.

- الطعام كان جاهزاً منذ التاسعة والآن قد بلغت الساعة العاشرة.

- أظن اني سهوت قليلاً.

امسك جيرد بكتفيها بقسوة وهزّها قائلاً:

- نمت. هل تعنين انك نمت في الحمّام؟ هل انت مجنونة؟ كان من الممكن ان تغرقي هناك.

سرى الخوف في أوصالها، ونظرت قلقة نحو القنطرة التي تؤدي الى غرفة الجلوس. وقالت:

- جيرد لا يحسن ان تكون هنا.

- كاترين لماذا غيّرت رأيك وقبلت المجيء معنا. أنا متأكد ان ليس هناك ما يجبرك على ذلك.

- لا بأس فأنا هنا الآن.

- أريدك ان تخبريني.

ابتعدت عنه وهي تقول:

- من الأفضل ان تذهب الآن.

- ليس قبل ان تخبريني.

كان صوته رقيقاً ناعماً يشفّ عن شغف عارم يملأ قلبه نحوها، واقترب منها مادّاً ذراعيه يطوقها ويضمها الى صدره. ولكنها تراجعت الى الوراء وهي تقول:

- جيرد، اذهب الآن، وسألحق بك في الطابق الأرضي بعد قليل.

وقبل ان يتحرّك، جاء صوت غلين من غرفة الجلوس منادياً:

- فالنتينا أين أنت؟

- انها هنا، كانت تستحمّ. جئت اخبرها أننا ننتظرها على العشاء.

كان صوت جيرد هادئاً طبيعياً. فعجبت كاترين لهذا الاختلاف السريع في نبرات صوته. هل كان يمثل يا ترى؟ أكان يسخر منها؟ لم تستطع ان تجد على اسئلتها جواباً. وأفاقت من شرودها على صوت غلين:

- جيرد ماذا تفعل هنا؟ ظننت أنك رافقت أباك الى غرفة نومه.

- كنت معه، حتى دخل فراشه. ولحسن الحظ اني جئت ادعوها الى العشاء. والا، كانت غرقت في الحمام الذي أسلمت نفسها للنوم فيه.

شحب وجه غلين وقال متلعثماً:

- يا الهي، هل هي بخير الآن؟

- نعم انها بخير الآن. تعال يا غلين. دعنا نتركها، فقد قالت انها ستلحق بنا في غرفة الطعام بعد وقت قصير.

جرى كل هذا الحوار وكاترين مشدوهة أمام ما يحدث لم تستطع ان تقول كلمة واحدة. ولما حاولت ان تفتح شفتيها كان جيرد قد قاد ابن أخيه عبر غرفة الجلوس الى الممر. فوضعت يديها على أذنيها تبعد عنها صوت اغلاق الابواب الثقيلة.

مضت فترة العشاء بطيئة ثقيلة، يسودها صمت عميق. كأن كل منهم كان مشغولا بهواجسه.

عند انتهاء العشاء، كانت كاترين أكثرهم شوقاً للهرب الى غرفة نومها. ولكن غلين أخّرها، ممسكاً بيدها عندما تمنّت له ليلة سعيدة. وأرغمها على البقاء معه بعض الوقت بعدما غادر الآخرون. وقال:

ـ لم تكن لديّ الفرصة لأنفرد بك اليوم. متى يمكننا ان نجلس معاً وحدنا يا فالنتينا؟ هل العمى الذي أصبت به يضايقك؟ ألم تقولي انه مؤقت؟ أم انك وجدت جيرد اكثر مني جاذبية؟ اني احذرك فوالدتي لن تقف مكتوفة اليدين حيال ذلك. فهي تتوقع ان يتزوجها.

خرجت الكلمات مسرعة تنمّ عن القلق من بين شفتي كاترين:

ـ آه، غلين، لا تكن أحمق. أنا لا أعرف عما تتحدث. انت مريض، والأفضل ان تذهب الى فراشك مباشرة وتستريح.

ـ آه، متى أتخلص من هذا العمى اللعين؟

ربتت كاترين على خده تطمئنه وهي تقول:

ـ كن صبورا يا عزيزي، سوف يعود اليك بصرك. وكل ما في الأمر، انه يحتاج الى وقت. والآن دعنا نذهب الى النوم. فالأمور ستبدو مختلفة في الصباح.

قال غلين بخشونة:

ـ لن تكون كذلك بالنسبة اليّ. فالنتينا، الصبح والمساء فقدا معناهما عندي وأصبحا سيّان. وكل شيء أسود، أسود. . .

اشفقت كاترين عليه، ووضعت يدها على ذراعه بحنان وقالت:

ـ آه غلين، لا تفقد ايمانك.

خلّصها من هذا الموقف صوت جيرد قائلا:

ـ هذا يكفي يا غلين، دعني أساعدك للصعود الى غرفتك. فان كلا منكما متعب.

وساءلت كاترين نفسها، ترى منذ متى وهو يراقبها. ولماذا؟ لا يمكن ان تكون الغيرة هي السبب؟ فهي ليست مغرورة الى حدّ ان تتصوّر ذلك. هل يمكن ان يكون جيرد صادقاً وانه احبها بالفعل؟ ام انه جاء ليفرض سيطرته عليها؟

عندما أطلّ صباح اليوم التالي، أزاحت كاترين الستارة المخملية عن فراشها، واخرجت قدمها لتغادره. ذكرت ليلة الأمس، واحست بالامتنان لتدخل جيرد مهما كان سببه. كان يكفي غلين في تلك اللحظات ان تمتد يده الى شعرها ليعرف انها ليست فالنتينا. وكل الحسنات المتوقعة من حضورها، ستمحى في لحظة تهور.

كانت ممتنة فقط لتدخّل جيرد في تلك اللحظة. اما غير ذلك فهي لا تريد ان تفكر فيه على الاطلاق. لقد سلك معها سلوكاً شائناً، ولا بدّ انه ادرك ذلك. والا فما معنى تجاهله لها طيلة المساء؟ يا لله لقد خانت مبادئها. لا بدّ انه قرأ شيئاً ما في عينيها حتى تجرأ وحاول الاقتراب منها. وكانت شاكرة أيضاً لدخول غلين الى غرفتها يسأل عنها في ذلك الوقت. لا شك ان جيرد ينظر اليها بغير احترام، وهذا ما لن تسمح به ابداً.

سحبت الستائر المخملية عن النوافذ، فأثارت اعجابها تلك المشاهد الخلابة التي بدت أمامها. مساحات ومساحات من المراعي الخصبة الخضراء التي تمتدّ حتى تعانق الأفق. ذلك الحدّ الغامض الجبالي الذي يتلاشى في حزمة من الغيوم.

وأمامها غابت الجبال تحت ستائر من الأضواء الوهّاجة، حتى كادت كاترين تحسب ان لا جبال هناك. واخذت اشعة الشمس تلوّن المنحدرات بلونها الأصفر الشاحب فتكسبها جمالا فوق جمال. لقد سبق لها ان قرأت في احد الكتب ان الجبال تسحر الرجال. وهي أيضاً، ولأول وهلة، لقد سرى في عروقها شعور بالنشوة والانتعاش. ولكن لما بدأت الغيوم تكلل بياضها رؤوس المرتفعات، أدركت خطرها أيضاً.

كانت لا تزال الساعة السابعة والنصف تقريباً، ومع ان الوقت كان مبكراً، الا انها أحسّت بجوع شديد. ولذا فكان أول ما فعلت ان اغتسلت وارتدت ثيابها. لم يكن من الصعب عليها ان تهتدي طريقها الى الطابق الأرضي، حيث سمعت حديثاً يدور هناك. استطاعت ان تميّز صوت ماريا. اما الآخر فقد اخطأته عندما حسبته صوت جيرد. لقد سمعت ماريا تقول:

ـ أنا لا احس بالعطف عليك.

ـ أنا لا أتوقع منك ذلك يا امرأة. فقط هات بعض القهوة وكفّي عن

الثرثرة. فاني سأخرج مع جيرد هذا الصباح.

كان المتكلم يجلس قرب الموقد، طويل القامة، حاني الكتفين بعض الشيء. ولما أحس الرجل بقدومها التفت اليها، فرأت فيه رجلا عجوزاً، رسمت السنون على وجهه عشرات من الخطوط العميقة. وأدركت على التوّ انه والد جيرد. بادرها بالكلام قائلا:

ـ لا شك انك فالنتينا. أليس كذلك؟ تعالي ايتها الفتاة فلا حاجة للخجل.

تقدمت منه وأجابت:

ـ نعم انا هي. كيف حالك؟ انت...

أتمّ الرجل كلامها بقوله:

ـ انا بن فريزر. سعيد ان اراك يا فالنتينا. غلين حدثني عنك كثيراً في رسائله. هل نمت جيداً؟

ـ نعم، نعم. أنا لم أنم في حياتي في سرير فخم كهذا.

دخلت ماريا الغرفة وهي تحمل صينية عليها فنجانين من القهوة. ووجهت حديثها الى كاترين:

ـ هل تعلمين ان هذا الرجل خرج من البيت منذ الساعة الخامسة والنصف صباحاً؟ ولولا جيرد لما رأينا وجهه الا بعد عدة ساعات.

تناول بن فنجاناً من القهوة، قدّمه لفالنتينا وقال:

ـ آسف لم أحيك الليلة الماضية، فأنا لم أكن بخير.

أحست كاترين ان هناك ما يزعج الرجل. وجاءها صوت من الخلف يقول:

ـ حسناً، أخيراً أنت على استعداد. وهذا امر تشكر عليه.

اجتاز جيرد القاعة اليهم، يستمع الى ابيه الذي قال:

ـ لا تظن أني استيقظت من اجل الخروج معك يا غلام. بل لأني اردت ان اسلّم على فالنتينا. واني لآسف لأني لم أكن هنا الليلة الماضية لأفعل ذلك.

التفت جيرد الى كاترين وسألها:

ـ هل وجدت غرفتك مريحة؟

ـ آه، نعم، مريحة جداً.

وانشغلت بالقهوة التي كانت تتناولها، وبقيت على تحفظها معه. مع انه لم يكن من السهل عليها ان تتجاهل شخصاً يراقبها.

ثم سأل أباه:

ـ ألست على استعداد؟ فاني لست عازماً على الوقوف هنا طول النهار.

وضع بن فريزر فنجان القهوة من يده على الصينية وقال، وهو يرمق كاترين بحركة مضحكة:

ـ مستعدّ تماماً. هل سنبقى خارجاً طيلة النهار؟

ـ لديّ عمل كثير، كُفّ عن العبث قليلا. ان هورس ينتظرنا.

وجه جيرد كلامه الى كاترين وهو يمرّ بها:

ـ هورس هو المشرف على مزرعتي. وهو ابن ماريا.

وتلاقت عيناهما لحظة، ثم مضى.

٨- صفحة من الماضي

تناولت كاترين فطورها في المطبخ بلا شهية. وأحسّت ان النهار فقد بهجته طالما جيرد سيغيب حتى المساء.

أخذت ماريا تحدثها، ولم تترك موضوعاً يخصّ المنزل والمزرعة الا تطرقت له تقريباً. لقد أخبرت كاترين أنها هي التي تقوم بتهيئة جميع الأطعمة والحلويات. كما أنها تشرف على جميع العاملين في البيت. وفهمت من حديثها ان ليزا لا تعبأ بأعمال المنزل. ولا تقوم الا بالشيء القليل جداً منه. كما اخبرتها ان السيد بن فريزر والد جيرد قد فقد قوته ونشاطه وأصبح على هذه الحال بعد موت ولده انغوس. ولذا اضطرت ليزا ان تقوم بتربية ولدها وحدها وأصبحت تعتمد على جيرد في جميع شؤونها تقريباً.

قالت كاترين مشتركة بالحديث:

- هل هناك شيء أساعدك به؟

- تساعدينني انا؟ أنت هنا لمساعدة غلين كي يستعيد صحته. أرجو من الله ان يعيد اليه بصره.

- آمين!

وأضافت ماريا:

- يبدو أن غلين لا يستطيع الصبر، حتى يأتي اليوم الذي يرحل فيه. ولو أن والدته تريد عكس ذلك.

- هل المزرعة مهمة بالنسبة اليها الى هذا الحد؟

- يمكنك ان تقولي ذلك.

- أظن ان المزرعة كانت ستؤول الى غلين لو بقي أبوه حياً.

- لا، فان جيرد ماكدونالد، الجدّ، ترك المزرعة لحفيده جيرد...

- اذن لم يكن بن والد جيرد هو المالك؟

- لا. كانت المزرعة لماكدونالد والد أمه. والد السيدة مارغريت. في ذلك الوقت كانت هنالك سيدة بالفعل، سيدة بالمعنى الحقيقي.

شعرت كاترين ان في كلام ماريا تلميحاً على ان ليزا لم تكن تلك السيدة. وقالت:

- يبدو أنك تعرفينها.

- بالتاكيد هي التي أحضرتني الى هنا. وبقيت معها حتى ماتت، المسكينة، لقد ماتت أمها بعد ولادتها مباشرة. فكرس أبوها ماكدونالد كل حياته لها.

تنهدت ماريا تنهيدة عميقة وتابعت:

- لقد كان ماكدونالد سعيداً عندما تزوجت ابنته مارغريت من بن فريزر. ولكن سعادته لم تكتمل. لان بن لم يبد اي اهتمام بالمزرعة. عاشت مارغريت خمسة عشر عاماً بعد زواجها. ولحق بها أبوها بعد ذلك بعشرة سنوات.

فهمت كاترين ان زواج مارغريت من بن لم يكن موفقاً، كما أراده أبوها ان يكون. ولكن كاترين بعدما رأت بن فريزر، لاحظت انه كان رجلا وسيماً جذاباً في يوم من الأيام. ولا شك ان المرارة والأسى هما اللذان حفرا في وجهه هذه الخطوط العميقة. لقد استلطفته كاترين وارتاحت اليه، وشعرت انه انسان بكل ما في هذه الكلمة من معنى. اما انه لا يهتم بالمزرعة فهذا امر يعنيه هو.

قطعت ماريا حبل أفكارها وقالت:

- أظن ان الوقت مناسب الآن لأقدم الى غلين طعام الافطار. أليس كذلك؟

وقفت كاترين مسرعة وقالت:

- دعيني أفعل.

- حسناً، لم لا؟ أظن أنه سيكون أكثر سعادة ان تكوني انت بدلا مني. ولو انه لا يراك الآن. مسكين هذا الفتى، فان قلبي يكاد ينفطر من اجله.

اخذت كاترين تصعد درجات السلّم وهي تحمل له طعام الافطار.

وجال في خاطرها سؤال، ترى من أراد ان تكون غرفتها بعيدة عن غرفة غلين؟ فهي ممتنة لمن رتّب هذا الأمر، كائناً من كان. فهل هو جيرد؟ أم هي ليزا؟ لا بدّ أن لكل منهما أسبابه لابعاده عنها.

كان غلين هو الذي فتح لها الباب بنفسه عندما طرقته. فأدهشها ذلك. وهي كانت تحسب انه لا يزال مستلقياً على فراشه. وبعد ان تبادلا التحية، جاعلة الصينية حاجزاً بينهما، سألته:

- أين أضع لك الفطور؟

- هناك على الطاولة قرب النافذة. يمكنك ان تتحدثي إليّ اثناء تناولي الطعام إن كنت تتحملين مراقبة أعمى يأكل.

- غلين، لا تقل أنك أعمى. فأنت لست أعمى. كم مرّة قلنا لك ان هذا الأمر مؤقت، وان بصرك سيعود إليك قريباً.

صمت غلين برهة ثم أخذ يتحدث إليها وهو يأكل. حدثها عن المزرعة وكيف تسير الأمور فيها. هالها ان تسمع ان في المزرعة خمسين ألف رأس من الماشية تحتاج جميعها الى رعاية وتنظيم. وضحكت من نفسها على سخف تصوراتها عن تربية المواشي، وهي تستمع الى شرحه. ثم قال:

- بالرغم من وجود رئيس للعاملين في المزرعة، فان جيرد يتابع العمل بنفسه عندما يكون هنا. ولا أخفي عليك، فانني مهما احببت المزرعة، فلن يكون مثل حب جيرد لها. ذاك الحب الذي يجري في عروقه. أما أنا فكسول مثل أبي.

- ولكن يبدو ان امك تحب المزرعة.

- آه، نعم، حب أمي يدور حول جيرد فقط. ولا ادري لماذا تزوجت أبي. لم يكونا سعيدين معاً مطلقاً.

كتمت كاترين انفاسها وقالت:

- آه يا غلين.

- انها الحقيقة. فهما لم يكونا سعيدين ابداً. بل كانت المشاحنات بينهما مستمرّة. وأغلب الظن ان تلك المشاحنات كانت بسبب قضائه معظم اوقاته في الصيد. أما أمي فقد كانت تفكر في جيرد.

بالرغم من ان غلين لا يستطيع ان يرى ملامح الذهول التي بدت على وجه كاترين، فإنه غيّر مجرى الحديث وسألها:

- فالنتينا، هل لديك خبرة في ركوب الخيل؟

- نعم قليلا. كنا نتدرّب على ذلك ونحن في المدرسة.

قال غلين مستغرباً:

- نحن؟ آه، نعم. انت وكاترين. لقد تذكرت، ما قالت لك عندما اخبرتها بأمر سفرك معنا الى كندا؟

- آه، كانت فرحة جداً من أجلي..

- حقاً لقد أدهشتني. ألم تقولي لي سابقاً، أنها كانت توبخك دائماً وتريدك ان تتصرفي باتزان، من غير ان تترك لك فرصة للّهو؟ لا بد أنها تختلف عنك كثيراً.

- حقاً، ولكن عندما عرفت ما أصابك، لم تمانع.

- حسناً، ما رأيك ان نخرج لركوب الخيل هذا الصباح؟ فأنا أحسّ بأن الشمس مشرقة، والنهار صحو جميل، مناسب للخروج. وأريد أن أريك المزرعة، أعني جزءاً منها طبعاً.

- لكن، هل تستطيع . . .

قاطعها غلين قائلا:

- نعم استطيع ان اجد طريقي. فالنتينا، أنا ولدت هنا، وتدربت على ركوب الخيل في هذه المراعي منذ صغري، منذ كنت في الثالثة من عمري. ولن أجعل من نفسي سخرية لأحد، اذا ساعدتني بعض الشيء. وبالمناسبة سوف أريك مبنى العمال. فأنا أريد أن أتحدث الى فوسنغ وهو الطاهي هناك.

سمعا طرقاً خفيفاً على الباب. فصاح غلين غاضباً:

- من هناك؟

ومن غير ان يسمع الرد، فتح الباب ودخلت ليزا. ولما وجدت كاترين هناك نظرت اليها بطرف عينها، ثم قالت تحدّث ابنها:

- يا عزيزي. لم أكن اعرف ان فالنتينا بصحبتك، فجئت لأطمئن عليك.

- أنا بخير يا أمي. لقد نمت جيداً. وتناولت فطوري الآن. وبعد ان ارتدي ثياب الخروج، سنتجوّل انا وفالنتينا على ظهور الخيل، في أرجاء المزرعة.

قالت ليزا وهي لا تزال تنظر الى كاترين:
ـ ليس من الحكمة يا ولدي أن تفعل ذلك. فما زلت تحتاج الى الراحة.
تدخلت فالنتينا وقالت:
ـ اظن أن أمك على حق. لعلك تكون أفضل في الغد. فليس في الأمر عجلة.
دار حول السرير وألقى بنفسه على فراشه وأجاب:
ـ حسناً يا فالنتينا، أنا أقبل اذا وعدتني ان تخرجي معي في الغد.
فصاحت أمه بغضب:
ـ هل يمكنك ان تعرف كيف سيكون حالك في الغد؟ اسأل جيرد أولاً.
ـ جيرد... جيرد... الى متى سيستمرّ وصياً عليّ. أرجوك يجب ان اعتمد على نفسي.
اخذت ليزا نفساً عميقاً، ورشقت كاترين بنظرة صفراء وقالت:
ـ حسناً، سوف لا أقول شيئاً أكثر من هذا الآن. ولكن اذا حصل شيء، فأنت وحدك المسؤول.
كاترين كانت تعلم انها كانت تعنيها بهذا الكلام. ولكن غلين أسرع وأجاب:
ـ ستكون غلطتي وحدي! اهدأي يا أمي سوف لا يحدث الاّ الخير.
ـ أرجو ذلك، في كلّ حال سأذهب وارتدي ثيابي. ثم اعود اليك، عندما تكون وحدك. اريد أن أسمع منك اخبار الجامعة. ولا شك ان فالنتينا ستسمح لي بذلك.
كان يبدو من موقف ليزا، انها تميل الى تعكير الجوّ الذي يحيط بها. وتساءلت: ترى لماذا تكرهها ليزا؟ فان كانت تكره فالنتينا لما فعلت، فهي تعرف انها ليست فالنتينا. وانها هنا فقط لمساعدة غلين، ريثما يعود اليه بصره، وهي لا تشكل اي خطر.
في وقت لاحق من الصباح، شعرت كاترين برغبة في الخروج الى الهواء المنعش. حيث يمكنها ان تخفي قلقها وراء البهجة التي ستحس بها، من جراء شعورها بأنها وحدها في أحضان الطبيعة تلفح الشمس وجهها، ورائحة الحشائش الخضراء تملأ رئتيها. وقبل ان تخرج، أخبرت ماريا برغبتها، فلم تبد المرأة العجوز على ذلك أي اعتراض، أكثر من أنها
حذّرتها من الابتعاد عن المنزل. وتأكدت كاترين ان لا مجال للضياع ضمن هذه المساحات الشاسعة التي يرى الانسان فيها الى بعد عدة أميال.
مع ذلك، فقد أخذت كاترين بنصيحة ماريا. وبقيت ضمن المنطقة التي تحيط بالمبنى. كما قضت وقتاً ممتعاً تتفرج على الخيول التي جذبت انتباهها، قبل ان تعود الى المنزل.
لم يكن في غرفة الطعام سوى كاترين وليزا عندما حان موعد الغداء.
فبدأت ليزا بالكلام قائلة:
ـ بالحقيقة، عليك الاّ تشجعي غلين على ان يصدّق ان حياته ستستمرّ معك. أعني كأنك ستشاركينه حياته في المستقبل. ان مساعيك تتعارض مع شفائه...
قالت كاترين وهي تلهث:
ـ انا لا أعلم أني فعلت شيئاً من ذلك.
ـ أنت تعرفين تماماً ان ركوب الخيل آخر شيء يمكن ان يقوم به. ففي حالته، اذا سقط...
تدخلت ماريا وهي تحمل بعض الأطباق من الطعام:
ـ غلين يركب الخيل منذ نعومة أظفاره. فلا تحطمي ثقته بنفسه يا سيدة ليزا.
ـ لم اسألك رأيك يا ماريا. اني أحس بصداع فهل يمكن ان تعطيني دوائي؟
اخذت ماريا الأمر بروح طيبة. أما كاترين فقد التفتت الى طعامها، فهي لا تريد ان تحشر نفسها في مشاحنة مع والدة غلين.
إختفت ليزا بعد الغداء، ويبدو انها ذهبت الى ابنها. وكاترين عادت الى غرفتها، تكتب رسالة الى ابيها. لم تذكر فالنتينا بشيء. ولكنها فقط أخبرته انها تقضي اجازتها في كندا. ولتفكر فالنتينا بهذا كيفما شاءت.
كان العشاء اكثر متعة وتسلية، بوجود بن فريزر. وقد تواجد الجميع حول المائدة.
كان غلين يجلس الى جانب كاترين، يسألها اين قضت طيلة بعد الظهر، ولاحظت من ذلك ان ليزا لم تكن عنده. قالت:

ـ ظننت ان أمك. . .

ـ والدتي قضت معي فقط خمس عشرة دقيقة. وبعدها كنت أصغي الى التلفزيون. يا لله، كم هي لعبة البيسبول ممتعة بالسمع، عندما لا تقدرين ان تريها.

أما جيرد فقد بقي منطوياً على نفسه كالليلة السابقة. وما عدا سؤاله لكاترين عن كيفية قضائها يومها هذا، لم يشارك في الاحاديث مطلقاً. وعندما التقت عينا كاترين بعينيه رأت الغضب يطلّ من أعماقها دون ان تعرف ما الذي كان يجول في خاطره.

والد جيرد هو الذي أضفى على الجلسة حيوية وبهجة، بقصصه الشيقة ونوادره اللطيفة. وكان يبدو انه قصد بها تسلية كاترين.

كانت كاترين سعيدة جداً بالاستماع اليه، مرتاحة لصداقته. حتى ان غلين علق على ذلك، عندما انتهى العشاء، وسمح لعمه ان يقوده الى غرفة جلوس دافئة. وعندما خرج جيرد، مدّ غلين يده يعبث بخصلات شعر كاترين، ثم تمتم:

ـ اني أحس ان شعرك صار اكثر نعومة من المعتاد. كما اني ـ لا انكر عليك يا فالنتينا ـ أشعر أحياناً كأني لا أعرفك من قبل. . .

ـ غلين، الأفضل ان تذهب الى فراشك.

لم تجد كاترين كلاماً آخر تتهرّب به من الردّ عليه. أما هو فقد وقف قائلاً:

ـ حسناً، كما تشائين.

قادته كاترين، ولمّا بلغا أولى درجات السلم، أصر غلين على ان يصعد الى غرفته وحده، وقال:

ـ أطمئني، ساعرف طريقي. ومن دون تلك العصا التي أعطاها الطبيب لجيرد. . . اني ارفض ان اتجول بعصا.

لم تمانع كاترين. وهي تحس ان غلين يجب ان يعتمد على نفسه. ولكنها وقفت تراقبه وهو يصعد. ثم عادت.

فوجئت بجيرد خارجاً من غرفة الجلوس. فتراجع قليلا ليسمح لها بالمرور. ثم سألها:

ـ أين غلين؟ كنت قادماً لأوصله الى غرفته.

أجابته متحاشية النظر الى عينيه:

ـ لقد ذهب. أراد ان يصعد وحده، وأظن ان هذا هو الأفضل.

لحظة صمت مرّت بهما، حسبته قد رحل خلالها. ولكن عندما التفتت وجدته لا يزال واقفاً ينظر اليها، وقال بصوت منخفض:

ـ اظن انه يجب عليّ ان اعتذر. لم اجد فرصة لأفعل في الليلة الماضية. فهل تصفحين عني، أنا لست همجياً الى هذا الحدّ.

اتكأت كاترين على حافة الأريكة، وتمنت لو انه يذهب. فهي لا تريد اعتذاره، ولا تصدق انه يعنيه حقاً.

مشى حتى وقف أمامها، لكنها لم تنظر اليه، فتكلم ثانية:

ـ أليس عندك ما تقولين؟

هزّت كتفيها وتمتمت:

ـ حسناً، قبلت اعتذارك.

ثم لمس شعرها المستعار وقال:

ـ اني آسف، أظن انك ستلبسينه اكثر مما كنت أتوقع.

نظرت اليه نظرة خاطفة، فلمحت في عينيه تعبيراً لطيفاً فقالت:

ـ لماذا لم تحسب انني ساحتاجه طيلة الوقت؟

كانت كاترين تتجه نحو الباب الى غرفتها، عندما ظهرت ليزا التي قالت متجاهلة اياها:

ـ هكذا اذن، انت هنا يا عزيزي، كنت أبحث عنك والآن وجدتك.

كانت كاترين تدرك وهي تمضي ان عيني جيرد تلاحقانها. وأصابعه تعبث بلطف في شعر ليزا الحريري المتموج.

٩ - صرخة في واد

مرت ايام ثلاثة قبل أن يخرج غلين مع كاترين لركوب الخيل. ايام ثلاثة قضاها في فراشه، ما عدا ساعات المساء التي كان ينضم فيها الى بقية افراد العائلة على مائدة العشاء، أو في غرفة الجلوس. وأما كاترين فكانت تجد سلوى في رفقة ماريا في المطبخ تستمع الى حكاياها.

غير انها بعد ظهر احد هذه الأيام، رافقت بن فريزر في جولة في انحاء الطابق الأرضي وهو يحكي لها تاريخ العائلة. اخذا يتنقلان من غرفة الى اخرى، وهي في حالة من الذهول امام فخامة ما ترى. والواقع ان كاترين لم تعرف عدد الغرف التي مرت بها، ولم تستطع ان تقدر المساحات التي بنيت عليها، وجميعها لا تقل رحابة، وزخارفها لا تقل جمالاً عما سبق ورأته من اجزاء المبنى. وعجبت في نفسها، لم كل هذه القاعات ولم كل هذه الغرف؟

كأن بن قد قرأ افكارها فقال وهما لم ينهيا جولتهما بعد:

- في الواقع لم يكن من الضروري بناء جميع هذه الغرف. ولكن ماكدونالد اراد ان يبني اكبر وأفضل بيت في الجوار. وهذا ما فعله.

مرا بغرفة خاصة للموسيقى. مزخرفة بأجمل الزخارف وأتقنها. في وسطها بيانو فخم لم يفقد رونقه ولمعانه. وفي أحد الزوايا قيثارة كأنما لم تمسها يد.

مر بن بأصابعه على مفاتيح البيانو، وقال وفي صوته نغمة حزن عميق:

- مارغريت اعتادت ان تعزف عليه. ولكن بعد ولادة انجس وجيرد، لم يعد لديها الوقت الكافي لذلك.

شعرت كاترين ان جيرد احتفظ بهذه الغرفة كما هي لذكرى امه. ولما نظرت الى بن رأت ملامح اسى دفين ترتسم على وجهه.

وصلا الى غرفة المكتبة، فكانت كبقية الغرف باتساعها وزخارفها وترتيبها وفخامة اثاثها. القت كاترين بنفسها على احدى الأرائك تستريح، ووقف بن قبالتها يتكىء على حافة مكتبة تغطي الجدار صفت فيها الكتب من الأرض حتى السقف. ثم قال:

- في هذا المكان تجدين جيرد في معظم الأحيان، هذا اذا لم يكن في غرفته التي يخلو الى نفسه فيها.

سحب بن من بين الكتب مجلداً ضخماً وأخذ يقلبه بين يديه، وقال:

- لقد اشترى ماكدونالد هذا المجلد لأنجس ولدي الأكبر. لقد كان صياداً ماهراً، وكان يسعده الخروج الى الصيد في جميع الأجواء.

ومرة اخرى مرت سحابة حزن على وجه بن. واستمر في الكلام، واستمرت كاترين في الاصغاء اليه، ولكنها فجأة لمحت جيرد من خلال النافذة. فوقفت مسرعة وتراجعت تخفي نفسها وراء الستائر المخملية، لئلا يظن انها اخذت حريتها اكثر مما يجب. اما بن فانه لم يلمح ولده الأصغر وتابع:

- انجس قتل. الطائرة التي كانت تقله سقطت في الغابة، على الجهة الشمالية من هنا. في طريق عودته من رحلة صيد. مسكين انجس، فهو الخاسر دائماً.

لم يدخل جيرد الغرفة، ويبدو انه صعد مباشرة الى سريره. اما هما فقد اكتفيا بهذا القدر من التجول، وافترقا كل الى غرفته.

كان الهواء عليلاً، والشمس دافئة، مع اطلالة صبح اليوم التالي. وحالة غلين كانت تسمح له بالخروج برفقة كاترين لركوب الخيل.

الاسطبل كان قريباً من مساكن العمال، ولكن قلة منهم كانوا قد خرجوا في هذه الساعة من الصباح. رأت كاترين اثنين من العاملين هناك، فصاحا محيين، ثم تقدما وصافحا غلين الذي قدم كاترين اليهما. وقال احدهما موجهاً حديثه الى غلين:

- لقد سمعنا بما اصابك، ولكن يبدو انك عوفيت. فان دماء ماكدونالد تسري في عروقك. ولن يستسلم أي ماكدونالد!

- يسرني ان اسمع ذلك. هل هو قريب من هنا؟ اريد ان اعرفه على فالنتينا.

- انه في مبنى العمال!

لاحظت كاترين انهما كانا مولعين بغلين. وبعد ان ودعاهما، قادها الى مبنى العمال. وجدا هو في المطبخ فتبادلا معه التحية. وبينما كانت كاترين تلقي نظرة على الغرفة التي يتناول الرجال فيها طعامهم، اخذ هو يشرح لها بعض الأمور التي تجري هناك، فقال:

- لدينا خمسون عاملاً هنا، بعضهم يعيش مع عائلاتهم...

قاطعته كاترين:

- كنت احسب ان جميعهم يعيشون مع عائلاتهم في هذه البيوت.

اجابها غلين:

- كانوا يفعلون ذلك منذ سنين. لكن جيرد حفاظاً على سعادة عماله، ترك لهم حرية العيش اينما يريدون، كي يتمتعوا باوقات فراغهم على النحو الذي يشاؤ ون.

- ان جيرد يقدر على ذلك.

قال هو باعتزاز:

- جيرد رجل بكل ما في هذه الكلمة من معنى. فهو يستحق ان يكون حفيد ماكدونالد.

قال غلين معلقاً:

- هو يحب جيرد ويخلص له. فقد انقذ حياته مرة من الغرق.

وأضاف هو:

- فعلاً، لقد انقذ حياتي من الغرق، أو الموت برداً. وخاطر بحياته من اجلي. مع انه كان من الممكن ان يتجمد مثلي.

لم يرض غلين بالحصان الذي قدمه له تروي، ذلك الشاب اليافع الذي لاقاهم في المطار. وألح على أن يركب حصانه برنس ولكن تروي قال:

- ان جيرد هو الذي حدد لي اي حصان اعطيك، وللآنسة فالنتينا.

- انا لا ابالي بما يقوله جيرد. اريد برنس. اين برنس؟

- لقد ركبه جيرد هذا الصباح.

قال غلين غاضباً:

- لا بأس، سوف اركب بريكر. لكن اخبر جيرد، انني لست مبتدئاً، ولو كنت اعمى.

كان الصبح رائقاً، والشمس ترتفع تدريجياً الى كبد السماء، تلوّن الجبال البعيدة بريشتها الذهبية، فتبدو كسلاسل من الذهب الخالص.

قال غلين لكاترين وحصاناهما يسيران جنباً الى جنب:

- آسف على تصرفي لكن مثل هذه الأمور تقلب كياني.

- لا تبالي يا غلين. والآن اعلمني الى اين نذهب. فالمساحات شاسعة، ولا استطيع ان اقرر وحدي.

- حسناً، هل ترين تلك الجبال الى يسارنا؟ انها تبدو قريبة ولكنها في الواقع بعيدة جداً.

- انها تبدو في غاية الجمال. اليس كذلك؟

وتمنت كاترين لو قطع لسانها قبل ان تعطي مثل هذه الملاحظة. ولكن غلين اخذ الأمر بروح طيبة وأضاف:

- اظن انها اجمل جبال في الدنيا. ولكن اضافة الى بعدها فهي خطرة جداً.

- اني اتوقع ذلك. اذن الى اين نذهب؟

حوّل غلين رأسه وقال:

- من جهة اليمين - إذا لم اكن مخطئاً - هناك غابات كثيفة الأشجار، شاسعة المساحة، ثم تنحدر بشدة الى واد ضيق عميق، وهناك تشاهدين الشلالات التي اعطت منطقتنا اسم شلالات موز.

- ولكن يا غلين، اليس هذا خطر علينا ايضاً؟ الا يمكن ان نتجول فقط في هذه المراعي الفسيحة؟

- ماذا؟! اميال وأميال من المراعي، وآلاف الآلاف من المواشي. فهل هذا كل ما تريدين ان تريه؟

- لا ليس هذا ما اريد ان اراه. ولكن هذه اول مرة نخرج فيها. وأمك...

قاطعها بغضب:

- امي، امي، منذ متى تحافظ امي على وجودي الى هذا الحد؟ كل ذلك من اجل جيرد. هو يريدها ان تعتني بي، ولذا فهي تفعل ذلك. وهذا كل

ما في الأمر.
ـ آه يا غلين، انا متأكدة. . .
ـ متأكدة من ماذا؟ انها ام صالحة؟ انها تهتم لما يحدث لي؟ فالنتينا، هي فقط تريد جيرد، وهي مستعدة لتفعل اي شيء لتتزوج منه. دعينا نمضي الآن.

حرك غلين حصانه الى الأمام، وتبعته كاترين ثم تقدمته تشق الطريق. فرأت الأرض تزداد وعورة كلما توغلا داخل الأحراج، ثم الى المنحدرات التي تؤدي الى الوادي. كما كانت الأشجار تزداد كثافة فضاق الممر الذي يعبرونه.

أطلت كاترين من فوق، فأذهلها مشهد بحيرة تترجرج مياهها لامعة تحت ضوء الشمس، وخرير المياه التي تتدفق من فوق الصخور. وعندما بلغا مكاناً فوق الشلال مباشرة، وقفت مسحورة امام هذا الجمال الأخاذ. سمعت غلين يقول:
ـ شلالات موز. كم كنا نسبح في الصيف في هذه البحيرة. دعينا ننزل اليها.
ـ لا، لا يا غلين، الطريق صعبة جداً، الى هنا يكفي اليوم، دع ذلك الى يوم آخر. فأنت لا شك متعب الآن.
ـ انا بخير فالنتينا.

اصر غلين على الاستمرار في الرحلة. فهمزت الحصان بقدميها تحثه على المسير.

اصبحت الطريق اشد انحداراً عندما اقتربا من القاعدة. واشعة الشمس لم تعد تجد لها منفذاً من بين اوراق الأشجار الكثيفة. ورائحة العفن تنتشر في كل مكان من النباتات الكثة الرطبة.

كانت كاترين كلما تقدمت قليلاً تلتفت لتراقب غلين بكثير من القلق. واذا بها تجد نفسها فجأة ترتفع عن ظهر جوادها، عالقة بأحد الأغصان القاسية النائتة عرض الممر.

صرخت وهي تسقط عن صهوة الجواد على ظهرها، فوق النباتات الندية الشائكة، وسقط فرع الشجرة بعنف على وسطها. غابت كاترين عن وعيها بضع ثوان، ولما جاءها صوت غلين المضطرب منادياً، لم تستطع أن تجيبه.

كرر غلين النداء ولكن بلا مجيب. نزل عن ظهر حصانه، وأخذ يتلمس الأرض باحثاً عنها وهو يصيح:
ـ فالنتينا أين انت؟ ما الذي اصابك؟

ولما وجدها جثا بجانبها وتناول يديها بين يديه بحب وحنان. حاولت ان تتكلم وبصعوبة خرجت الكلمات متقطعة من بين شفتيها وقالت:
ـ انا . . . انا بخير يا غلين.
ـ هل انت حقاً بخير؟ كان من الممكن ان يدق عنقك. انها غلطتي، ما كان علي ان اجبرك على النزول.

استطاعت كاترين ان تجلس، وحركت جسمها، فاطمأنت انها على الأقل لم تصب بكسور. ثم تناولت الشعر المستعار الذي سقط عن رأسها وثبته مكانه. وقالت:
ـ غلين، لا تكن احمق، لست المسؤول عن ذلك، هيا بنا الآن نعود الى البيت، واني لآسفة اذ قطعت عليك هذه النزهة. ومن جهتي، اطمئن، فسوف اكون بخير عندما اغتسل وأبدل ثيابي.

ضحكت كاترين من نفسها وهما عائدين، لأنها هي التي سقطت وليس غلين. وتأكدت ان هذا سيفرح قلب ليزا. وتمنت الا تراها وهي على هذه الحالة. وألا يراها جيرد ايضا وهذه الأوحال تغطي ثيابها.

رجاؤها تحقق فلم يرهما أحد، سوى تروي الذي ألقى عليها نظرة تحذير دون ان يقول شيئاً.

تجاهلت كاترين آلامها وسمحت لغلين ان يتكىء عليها طول الطريق من الاسطبل الى البيت. وقالت في نفسها، كان يجب الا تستجيب لإلحاحه. وشعرت لو انها رفضت النزول الى الوادي، لكان تخلى عن ذلك وما اجبرها عليه.

رأتهما ماريا عندما دخلا البيت. ولكنها لم تعلق على مظهر كاترين الملطخ بالأوحال. ودعت غلين ليرافقها الى المطبخ ويتناول فنجاناً من القهوة. بينما ذهبت كاترين لتغتسل وتبدل ملابسها.

خلعت ثيابها بصعوبة، فقد كانت جميع اعضائها تؤلمها. بالاضافة الى البرد الذي تسلل الى جسمها من خلال ملابسها المبتلة. فكان الحمام الساخن بلسماً لجروحها ورضوض ظهرها. وأسلمت عينيها لاغماضة

قصيرة ليتسنى لحرارة المياه الساخنة ان تتسرب الى عظامها الباردة.

نبهتها الأصوات المنبعثة من تحت النافذة، الى ان الرجال عادوا من اعمالهم. وعرفت ان وقت الغداء حان.

اسرعت خارجة من الحمام لترتدي ثيابها. حانت منها التفاتة الى مرآة الخزانة التي كانت خلفها، فهالها ما رأت من بقع ارجوانية تنتشر في كل مكان على ظهرها، وأدركت ان السقطة لم تكن بسيطة كما تصورت.

لبست كاترين بنطالاً ضيقاً ذا لون اخضر جميل مع قميص انيق سكري اللون وصبرت على كل ما تحس به من أوجاع، ونزلت الى الطابق الأرضي. حيث رأت في القاعة الكبرى حشداً من الناس. كما رأت غلين يجلس على احدى الأرائك يتحدث الى رجل عجوز معه فتاة صغيرة. وليزا تقف قرب الموقد تجامل بعض الضيوف وعيناها تنظران نحو المدخل. اما جيرد فلم يكن له اثر هناك. اسرع اليها بن فريزر وتناول يدها وقال:

ـ تعالي يا فالنتينا، لأعرفك على زوارنا.

ثم سار بها بين الضيوف يقوم بمهمة التعارف. ولما انتهى من ذلك قدم لها كأساً وتناول هو كأساً آخر من عصير البرتقال.

أخذت احدى الزائرات تتحدث اليها قائلة:

ـ السيد بن اخبرنا انك ممرضة، آنسة فالنتينا. لقد كنت انا ايضاً ممرضة عندما التقيت بزوجي.

ـ اني طالبة تمريض فقط، ولم ابتدىء بذلك الا منذ ستة اشهر.

سمع غلين صوتها، وطلب منها ان تنضم اليه. فاستأذنت بن والمرأة التي كانت تحادثها، وهي تشعر بالارتياح لابتعادها عنها. ومضت الى غلين حيث جلست الى جانبه، فقال:

ـ دعيني اعرفك على فرانك ستيفنس ولوري. لقد كنا انا ولوري صديقان منذ ايام الدراسة.

لم تكن لوري بالفتاة الجميلة، ولكنها ـ والحق يقال ـ كانت كثيرة الجاذبية. وقد لاحظت كاترين انها تميل الى غلين. فتمنت لو انها تستطيع ان تخبرها الحقيقة، وانها لا تشكل خطراً عليها.

انفض الزوار في الساعة الواحدة والنصف تقريباً من غير ان يظهر جيرد. مما اضطر الآخرين ان يتناولوا غداءهم معاً من دونه تقوم على

خدمتهم ماريا ومساعدتها كارين.

نظرت ليزا الى بن وسألته:

ـ لماذا لم ينضم جيرد الينا؟ وهو يعرف اني سألته ان يطلب من مارتن المجيء، والقاه نظرة على غلين.

كان غلين هو الذي اجاب:

ـ انت تعرفين يا امي ان جيرد ليس لديه وقت للثرثرة اثناء النهار. في اية حال لماذا يجب ان يأتي جيرد الى هنا الآن؟ اتمنى الا تقحميني في امورك الشخصية.

ـ ماذا تعني اموري الشخصية؟

ـ لا ادري، انت تفهمين قصدي تماماً. وأنا لا احتاج الى طبيب اخرق مثل مارتن ليشرف على علاجي. الدكتور سنغ عمل الترتيبات اللازمة لأقابل الطبيب المختص في مشفى ماكنتزي، في كالجري، بعد اسبوعين. وحتى ذلك الحين لا احد يمكنه ان يفعل شيئاً.

قالت ليزا باقتضاب:

ـ انا فقط افكر فيك يا ولدي، واريد ان افعل اي شيء لمساعدتك. ولا اظنك تتوقع مني ان اتصرف وكأنك لم تصب بشيء.

شرب غلين العصير الذي في كأسه دفعة واحدة، وأزاح الصحن من امامه، وقال:

ـ حسناً، ولكني لست عاجزاً يا امي، وأتمنى ان تتذكري ذلك دائماً.

بعد الغداء طلب بن من كاترين ان تبقى معه، ريثما يذهب غلين ليستريح وبعد معارضة قصيرة من غلين مضى الى غرفته، تتبعه ليزا.

قالت كاترين تخاطب بن:

ـ يبدو ان جيرد يكرس كل وقته للمزرعة، مع اني عرفت ان لديه من ينوب عنه في اعماله.

ـ هناك فعلاً من يشرف على المزرعة، ولكن جيرد لا يوكل احداً وهو هنا. هذه ليست طريقته في العمل. ولم تكن طريقة ماكدونالد من قبل. ان حب المزرعة وتربية المواشي يجري في عروقه. كما انه يستمتع بصحبة العاملين عنده. خصوصاً هورس.

ـ هورس؟ آه، نعم، تعني ابن ماريا.

- لقد نشأ هوهورس معاً. فبعد وفاة والدته مارغريت، اصبحت ماريا بمثابة امه.

- آه، لقد فهمت.

- ما رأيك في ان نركب الخيل معاً في جولة قصيرة؟ ام انك ركبت اليوم بما فيه الكفاية؟

- اجل، لقد فعلت. واحب الآن ان امضي بعض الوقت في المكتبة. فأنا احب الكتب. وفي الواقع اني لم ار مجموعة كبيرة من الكتب كهذه، الا في المكتبات العامة.

- لك ما شئت، وأنا ساجد شيئاً آخر افعله

- هل ستذهب وحدك الى الاسطبل؟

- لا ادري، ربما، سوف اراك فيما بعد.

بقيت كاترين في غرفة المكتبة طيلة بعد الظهر. وعيناها تنظران الى الطريق بين الحين والحين، وربما كانت تنتظر مجيء جيرد. لا شك انها تحاول جاهدة ان تبعده عن مخيلتها. ولكن بالرغم من جميع محاولاتها، لم تستطع ان تتجاهله. وأيقنت ان عدم حبها لليزا كان بسببه.

بعد حين تركت المكتبة الى غرفتها. ولما كان ظهرها يؤلمها وتشعر بتصلب في انحاء جسمها، وجدت انه من الأفضل ان تأوي الى فراشها. وتمنت ان تجد لها حجة كالصداع مثلاً لتتحاشى بها الاجتماع على طاولة الطعام.

وفي المساء، وبعد ان استراحت كاترين بضع ساعات، لم تجد مناصاً من النزول الى غرفة الطعام. وهناك على المائدة، رأت جيرد ومعه هورس ابن ماريا.

لم تأكل كاترين كثيراً، وكذلك غلين. اما جيرد وهورس فقد امضيا مدة تناولها الطعام يتحدثان عن تجارة الماشية. حتى ان ليزا لم تعد تطيق ذلك، وقالت:

- هل من الضروري ان تدخل موضوع المواشي الى غرفة الطعام؟ انا لم اتحدث معك طيلة النهار يا جيرد. اكثير علي ان تبدي لي - على الأقل - شيئاً من الاحترام في المساء؟

اجاب هورس بصوت منخفض فيه معنى الاعتذار:

- اني آسف يا سيدة ليزا، انها غلطتي. لدينا امور كثيرة يجب ان نبحثها. ولكن الحق معك، فان مائدة الطعام ليست مكاناً لهذا البحث.

قال جيرد وهو ينظر الى ارملة اخيه نظرة تحذير:

- حسناً يا هورس، ليزا تقصد ذلك بالضبط. لكن اين بن؟ لا تقولي انه لم يكن هنا طيلة بعد الظهر.

- اظن ذلك. في الواقع انا لا اعرف. فقد قضيت فترة بعد الظهر في غرفتي استريح لأني كنت احس بصداع شديد. وأنت تعلم ان خدمة الضيوف ليست سهلة.

ضاقت عينا جيرد وقال:

- ضيوفك. ماذا تعنين بأنك تظنين؟ إما انه كان او لم يكن. اريد ان اعرف.

- لقد تناول طعام الغداء معنا.

- وبعدئذ؟

تدخل غلين قائلاً:

- انا وفالنتينا ذهبنا في نزهة نستمتع بركوب الخيل هذا الصباح. اما بعد الغداء فقد ذهبت الى غرفتي استريح، وبقي بن مع فالنتينا.

قالت كاترين:

- هذا صحيح، وقد طلب مني ان ارافقه في جولة قصيرة على الخيل، ولكني اعتذرت منه، لأني كنت متعبة قليلاً.

- اذن الى اين ذهب؟

ضاقت ليزا ذرعاً بهذا النقاش وهي تكره ان يهتم جيرد بأحد ولو كان اباه، وقالت:

- لم كل هذه الضجة حول غيابه؟ لا بد وأنه في مكان قريب. لقد يكون اخذ العربة الى موزباي.

قال جيرد:

- يبدو عليك يا ليزا الكثير من الضجر. وتحتاجين لبعض التغيير. اليس كذلك؟ وأنا اشعر ان الحياة في المزرعة موحشة لامرأة مثلك. وعليك ان تري حلاً لذلك.

لمعت عينا ليزا وقالت:

- جيرد هل تعني ما تقول؟ انت تعرف كم احب ان اقضي اسبوعين في نيويورك. اشتري ما اريد، اتمتع، اشاهد آخر المسرحيات. هل تظن اننا نستطيع ذلك؟ وطالما فالتينا هنا، فلن يكون غلين بحاجة الينا.

قال جيرد جازماً:

- يمكنك ان تذهبي حيث تشائين. ونحن نستطيع ان نتغلب على الصعاب. وكما قلت، فان غلين لا يحتاج اليك الآن.

شحب وجه ليزا وقالت:

- ماذا تعني نستطيع ان نتغلب على الصعاب؟ هل تعني انك لست قادماً معي؟

تراخى جيرد في كرسيه وأجاب:

- ليزا، انت تعلمين انني لا استطيع ان اترك المزرعة الآن. بالاضافة الى انني لا احب نيويورك.

اجابت ليزا بوقاحة:

- اية حيلة عفنة هذه التي تلعبها؟

نظر جيرد حوله وقد نفد صبره وقال:

- اية حيلة تعنين؟ ليزا انا لا امنعك ان تفعلي ما تشائين. اذهبي الى نيويورك. خذي معك بام بالمير إن أردت. انت تعرفين انها تسر بمرافقتك.

كاترين لمست موجة كره تتدفق نحوها من عيني ليزا، من آخر الطاولة، وهي تجيب:

- انا لا اريد ان اذهب مع بام بالمير، سابقى هنا حتى يكون لديك الوقت الكافي لتذهب معي، حتى لو انتظرت الصيف كله.

لم تخف هذه الملاحظة على كاترين. اما جيرد فقد هز كتفيه والتفت الى هورس يتابع حديثه.

عندما انتهى العشاء، اختفى الرجلان، واختليا في غرفة جيرد الخاصة، ليتابعا بحثهما. وغادرت ليزا الغرفة وفي صدرها عاصفة من غضب. اما كاترين فقد وقفت قبل ان تترك مجالاً لغلين ليبدأ اي حديث وقالت:

- غلين هل يزعجك ان اذهب الى فراشي؟ اني احس ببعض التعب.

- هل انت بخير؟ اليس هناك ما يؤلمك؟

قالت كاترين لتزيل مخاوفه:

- يا للسماء، غلين لا، ليس هناك ما يؤلمني. انا متعبة فقط، سوف اراك في الصباح.

لما طلع الصباح، لم تستطع كاترين ان تتحرك. فقد احست بآلام لا تطاق في جميع انحاء جسمها. دفنت وجهها في وسادتها تمسح دموعها. فما هذه الورطة التي اوقعت نفسها فيها؟

لم تستطع النزول لتناول الفطور. وقالت في نفسها، سوف يخرج جيرد مبكراً كالمعتاد. واذا خرج بن معه، فلن يبقى سوى غلين وماريا، من المتوقع ان يسألا عنها. ستتدبر الأمر مع ماريا، أما غلين فسوف تخبره بما تحس به من آلام.

انقضى الصباح الا اقله من دون ان يسأل عنها احد. وأخيراً وقبل الساعة الثانية عشرة بقليل، سمعت نقراً على الباب. فقالت وهي تحس بدوار:

- ادخل.

ولدهشتها لم يكن غلين هو الذي يسأل عنها وكذلك لم تكن ماريا. واعتدلت في فراشها عندما دخل جيرد، وسأل باختصار:

- هل انت مريضة؟

- لا، اني فقط احس بشيء من التعب، هذا كل ما هناك. ووجدت انه من الأفضل ان اقضي فترة الصباح في فراشي.

اتكأ جيرد على حافة القنطرة المؤدية الى غرفة نومها:

- هل هذا صحيح؟ ام تراك تتهربين بهذه الطريقة، من مواجهة الأسئلة التي اجد نفسي مضطراً ان اسألك اياها؟

صاحت كاترين باستغراب:

- أسئلة؟ أية اسئلة؟ انا لا اعرف عن اي شيء تتكلم.

- الا تعرفين لماذا خالف ابي تعليماتي؟ أو لماذا ارتفعت حرارة غلين هذا الصباح؟

١٠ ـ الاعتراف

ـ والدك؟ غلين؟ (قالت كاترين بارتباك) ماذا حصل؟

أجاب جيرد بأسلوب فظ:

ـ تسألين؟ انت تعرفين ما حصل، أنت التي ذهبت مع غلين في نزهة على الجياد يوم امس، وأنت آخر من تكلم مع أبي.

ـ كان يبدو بحالة جيدة عندما تركته بعد ظهر أمس. واما غلين فقد حسبته استأذنك في ذلك.

ـ لم يستأذنني مطلقاً. يا للسماء! هل فقدت عقلك؟ كان المفروض ان تعتني به.

ـ غلين ليس صغيراً. يجب ان يكون له رأيه الخاص. وحان الوقت لكي يبني شخصيته ويثبت وجوده.

قلب جيرد شفته وقال:

ـ وهكذا اخترت ان تنزلي معه الى الوادي، حيث الهواء رطب والطريق وعرة. لا شك انك مجنونة. كان من الممكن أن يدق عنقه هناك.

ـ لم أكن أريد النزول. ولكنها كانت رغبته.

ـ وأنت لم تحاولي ان تمنعيه. كاترين، اذا حصل له اي شيء...

ـ ولكن لم يحصل. فكيف تلومني على شيء لم يحدث؟

ـ والآن كان من المفروض ان تكوني الى جانب غلين، ولكني أراك هنا تستلقين في فراشك غير مبالية.

ـ أنا أحس ببعض التعب. اذهب الآن. وسأغادر الفراش بعد قليل.

أم أنك ستعيد تصرفاتك المشينة التي سلكتها في تلك الليلة؟ ما بك؟ لماذا لا

تذهب؟ أخبر غلين اني سآتي اليه حالما أرتدي ثيابي.

ـ سأطلب من ماريا ان تبلغه رسالتك.

ـ دع شخصاً آخر غيرها يخبره. لا أظنك ترغب ان يعرف غلين او ليزا بأية حرية تدخل الى جناحي.

ـ دعينا نستبعد ليزا من هذا الموضوع. ممكن؟

زمّت كاترين شفتيها وهو يغيب عن ناظريها. وحاولت ان تتحرك لتمد رجليها خارج الفراش. فأحست بوهن شديد، واذا الدموع تنساب من عينيها البنفسجيتين الجميلتين على وجهها الشاحب، من الألم المبرح الذي ألمّ بظهرها. فدفنت وجهها في الوسادة وهي تسائل نفسها، كيف سيمرّ عليها النهار، اذا كانت أطرافها ترتجف حتى من تلك الحركة البسيطة؟

لم تكن لطيفة اليدان اللتان رفعتا رأسها عن الوسادة. يبدو ان جيرد لم يذهب بعيداً عندما ظنت أنه مضى. فهزّ كتفيها وقال:

ـ يا لله لم كل هذا البكاء؟

ان سحابة الالم التي مرّت على وجهها من جراء تلك الهزة، جعلته يقطب حاجبيه ويقول:

ـ يا للسماء. أنا لا أريد أن أؤذيك. بالله عليك توقفي عن النظر إليّ وكأنني وحش كاسر.

أدارت كاترين رأسها من جهة لأخرى، وهمست:

ـ أرجوك أن تذهب.

دفعها الى الوسادة بحركة تدل على خيبة أمل. فلم تستطع ان تخفي أنينها. عندها حاول ان يكشف عنها الغطاء ليعرف ما بها وقال:

ـ كاترين أرجوك، بحق الاله، قولي ما الذي حلّ بك؟

نظر في عينيها الفاتنتين اللتين بدت فيهما نظرات التأنيب، ولكن كاترين تنفست بصعوبة ويداها ترتجفان وهي تعيد الغطاء على جسمها ثم قالت:

ـ لقد سقطت عن الجواد يوم أمس ولم يكن بودي ان أخبرك.

سألها بخشونة:

ـ كيف سقطت؟ وأين؟ لماذا لم تخبريني منذ البدء؟ فقد كنت أستطيع مساعدتك.

ـ ليس الأمر مهماً الى هذا الحد. فقط أحس بتصلّب في جسمي، وألم في

ظهري. هذا كل ما في الأمر. وسوف أتحسن بعد قليل.

ولم تدر الا وقد أزاح الغطاء عنها وقلبها على فراشها وهي تصرخ. فكتم انفاسه عندما رأى من خلال قميص نومها، اللون القاتم الذي ينتشر على ظهرها.

ارتعشت كاترين من غير ارادة منها، عندما لامست يده أماكن الكدمات في ظهرها وبالرغم من معرفتها أنها ستحتقر ذاتها فيما بعد، ولكنها لم تنكر بينها وبين نفسها أنها شعرت بارتياح لتلك اللمسات. وقالت:

ـ جيرد، ارجوك اتركني، واخرج من هنا.

جلس الى جانب السرير وقال بصوت غليظ:

ـ يا الهي، لماذا لم تخبريني؟ كان من الممكن ان تدقي عنقك. لا تتحركي ابقي كما انت. عندي شيء قد يساعدك. سأعود على الفور.

استدارت كاترين قليلا، ولكن هذه المحاولة كلفتها الكثير من الجهد والألم.

بقيت مستلقية على جانبها، حتى سمعت وقع خطوات. فظنت ان ماريا هي القادمة، وقد ارسلها جيرد ومعها وصفة تفيدها. ولكنها كانت مخطئة في ظنها. فان جيرد هو نفسه الذي عاد وفي يده علبة صغيرة. وقال:

ـ انه علاج قديم عندي. رائحته غير مستحبة، اما نتائجه فمضمونة.

ـ شكراً لك.

ردت كاترين عليه وهي تمدّ يدها لتتناول العلبة من يده. ولكنه ابعدها عنها، وقال:

ـ لا يمكنك ان تدهني ظهرك بنفسك، فأنا سأفعل ذلك. والآن وعلى مهل، عودي الى الوضع الذي تركتك فيه. سأحاول الا اوجعك.

نشر جيرد المرهم في أماكن متعددة على ظهرها، وأخذ يدلّكه بلطف ونعومة، وكاترين تحس بالارتياح من هذا التدليك، وهي تتمنى الا يتوقف ولكن جيرد كفّ عن ذلك. وذهب الى الحمام، غسل يديه وعاد قائلاً:

ـ هذا يكفي الآن، واقترح ان تستريحي في فراشك طوال اليوم. غلين سيتدبر أمر نفسه، ولو مرة واحدة من دون مساعدتك.

أدارت كاترين رأسها لتلتقي عيناها بعينيه، ثم قالت معترضة:

ـ آه، لا، جيرد اني أشعر بتحسن كبير.

ـ حتى ولو كان ذلك، فانت بحاجة للراحة. ماريا سترسل اليك الطعام الى هنا.

ـ حسناً، اذا كان هذا ما تريد.

أجاب بصراحة:

ـ ما أريده لا علاقة له بهذا. سأذهب الآن وأخبر غلين بما آلت اليه حالتك.

ـ شكراً.

ـ حسناً حاولي ان ترتاحي قدر الامكان، فنحن لا نريد ثلاثة مرضى في العائلة...

قاطعته بعصبية:

ـ ثلاثة...

أنهى جيرد الحديث من غير إبداء مشاعر، وخرج. اخذت كاترين تساءل نفسها، ترى ماذا يعني بقوله، ثلاثة مرضى في العائلة؟ هل ستصبح فعلا عضواً في هذه العائلة؟

بكت كاترين. ألمّ بها شعور بالاشفاق على نفسها وعلى بن أيضاً. وعندما دخلت ماريا تحمل لها صينية الطعام وجدت عيني المريضة متورمتين.

تركت ماريا الصينية جانباً، ووضعت الوسادة وراء كاترين وأسندتها عليها بصورة مريحة، وقالت:

ـ والآن أخبريني ماذا حدث؟ جيرد أعلمني أنك سقطت عن ظهر الحصان. ولم يخبرني أنه أزعجك.

مسحت كاترين أنفها بمنديلها ثم قالت:

ـ لا، بالحقيقة لم يزعجني. بل احضر المرهم، ودلّك ظهري به حتى احسست اني صرت احسن حالا.

لمحت ماريا العلبة الصغيرة وقالت:

ـ حسناً، لقد مرت بي هواجس كثيرة عندما رأيته يصعد الى هنا كالمجنون. ولكنه كان مختلفاً تماماً عندما رجع.

قالت كاترين:

ـ أنت مولعة جداً بجيرد، أليس كذلك يا ماريا؟

أجابت ببساطة:

ـ انه مثل ولدي.

وضعت ماريا الصينية أمام كاترين وقالت:

ـ هل تريدين شيئاً آخر؟

ـ آه، لا، شكراً.

ابتسمت ماريا وهي تتجه نحو الباب. ولكنها توقفت برهة، والتفتت الى كاترين وقالت:

ـ أنا أعلم انه ليس من شأني التدخل في أمور الآخرين. ولكن لديّ رغبة ان أعرف، متى تريدان أنت وجيرد ان تخبرا غلين انك لست الفتاة التي يظن؟

سقطت الشوكة من يد كاترين، وقالت بانفعال:

ـ انت. . . أنت تعرفين؟

ـ بالتأكيد. لانه، لا يمكنني ان أتصوّر أن أية فتاة بكامل قواها العقلية، من الممكن ان تخفي شعراً جميلاً كهذا، وراء شعر مستعار، الا اذا كان هناك سبب.

رفعت كاترين يدها الى رأسها وقالت قلقة:

ـ آه، لقد نسيت. . .

ـ لا بأس، لا بأس. جيرد اخبرني الحقيقة منذ أيام انك أخت فالنتينا. ووافقت على المجيء الى هنا بموجب نصيحة الطبيب. كما أخبرني أيضاً انك مخطوبة لشاب في لندن، هل هذا صحيح؟ أم قال ذلك فقط من اجل ليزا؟

بان الارتباك على وجه كاترين ورددت:

ـ ليزا؟

ـ نعم. فانا الاحظ ان جيرد مهتمّ بك.

ازدادت خفقات قلب كاترين، وقالت متلعثمة:

ـ جيرد؟ لا تكوني حمقاء. . .

ـ أنا لست جاهلة يا كاترين. لقد رأيت الطريقة التي ينظر بها اليك. ولم لا؟ فاذا كانت ليزا قد طلبت منه ان يرعى مصالحها ومصالح ولدها، فهذا لا يعني انه ملزم بالارتباط بها.

ارتجفت كاترين عند سماعها هذا الكلام. اذن ليس هناك حب بينهما. وجيرد لا يريد ان يتزوج ليزا. لقد اوضحت ماريا بكلامها ما كان غامضاً.

وفجأة غادرت ماريا المكان وهي تقول وكأنها ندمت على ما بدر منها:

ـ سارسل لك كارين بعد قليل لتاخذ الصينية. حاولي أن تنامي بعض الوقت.

لم تأكل كاترين الا قليلا. لم تعد لها شهية لذلك. وعندما جاءت كارين مساعدة ماريا لتاخذ صينية الطعام، تظاهرت كاترين بالنوم. وهي تتمنى لو أنها أخذت بنصيحة سيمون ولم تأت الى كندا. لو انها فعلت، لكانت اعفت نفسها من أمور كثيرة، على الأقل من الوقوع في حب رجل لا تستطيع ان تتزوجه.

في المساء كانت تشعر بتحسن جسدي على الأقل. لا شك ان المرهم قد أفادها. ولم تعد تشعر بتصلب في اعضاء جسمها. وصار بامكانها أن تتحرّك، وأن تذهب الى الحمام من غير ان تئن في كلّ خطوة تخطوها. وظنت انه في الصباح سيكون لديها القدرة ان تتجاوز هذه الحادثة التي أصابتها.

عندما آن وقت العشاء أحضرت كارين الطعام الى غرفة كاترين. واذا بها تتراجع خطوة الى الوراء وقد تملكتها الدهشة، رأت كاترين تجلس الى طاولة الزينة تسرح شعرها، والشعر المستعار ملقى الى جانب الفراش. فشهقت من فرط اعجابها به وقالت:

ـ ما كنت لألبس شعراً مستعاراً ولي مثل هذا الشعر الجميل. لا بد وانك تشعرين بتحسن الآن.

في المرّة السابقة حاولت كاترين ان تخفي شعرها وهي في الفراش تحت الغطاء أما الآن فقد رأتها وقضي الأمر ولم يعد هناك مجال لاخفائه.

قالت كاترين وقد أسقط بيدها:

ـ المسألة هي أن غلين يجب أن أقص شعري. وأنا بهذه الطريقة ـ طالما هو لا يرى ـ أوحي اليه بأنني فعلت.

قبلت كارين تفسيرها وعلقت بصوت منخفض:

ـ ولكن جهاله اتخاذ، واظن أنه سيغيّر رأيه عندما يعود اليه بصره ويستطيع أن يراه.

تكلفت كاترين ابتسامة وقالت:

ـ قد يكون هذا صحيحاً ولكن لا تخبريه الآن، ودعيه سراً بيننا.

- شفتاي مختومتان.
قالت ذلك وهي تهز رأسها وغادرت الغرفة.
تناولت كاترين ما اشتهت من الطعام الذي قدم اليها. وكانت تمسح شفتيها بمنديلها، عندما احست أن هناك من يراقبها. فرفعت رأسها لتجد جيرد متكئاً بجانب القنطرة. بدا شاحب اللون، كأنه امضى يومه في غرفته الحلوية بدلا من التجوّل في الهواء الطلق.
تقدم قليلا وقال:
- ماذا تفعلين خارج الفراش؟ أظن أنني قلت لك الا تغادريه طيلة النهار. ان جلوسك على الكرسي لن يساعد عضلاتك على الاسترخاء.
أزاحت جسمها قليلا الى طرف الكرسي لتريه المخدة الصغيرة التي تجلس عليها وقالت:
- الكرسي ليس قاسياً كما ترى. وأنا لا أحب تناول طعامي في الفراش.
- والآن هل انتهيت؟
- نعم، لماذا؟ هل جئت لتأخذ الصينية؟
لوى جيرد شفتيه وتقدم نحو الطاولة التي بجانبها وتناول علبة المرهم وقال:
- جئت من أجل هذه. هورس لوى كتفه وهو يجرّ بعض الاخشاب وسأدلكه له.
هزت كاترين رأسها وقالت:
- اني آسفة، هل هو بخير؟
- انه على قيد الحياة. ماذا عنك؟
- اشعر بكثير من التحسن. كيف أحوال غلين؟
- لقد هبطت حرارته. وأنا متأكد انه سيسعدك ان تعلمي ان ابي ايضاً بخير.
- فعلا لقد أسعدتني.
مرّت لحظة صمت قال بعدها:
- أظن أن ليزا قالت له ما يزعجه مما جعله يتعثر ويسقط. عادة يحدث ذلك.
لم تقل كاترين شيئاً، واستمرّ جيرد في الحديث:

- أنا سعيد لأنك تشعرين بتحسن. غلين أخبرني عما حدث. ولا أريد أن أخبرك بما قلته أنا.
- يمكنني ان أتكهن.
اقترب منها أكثر فأكثر وقال:
- هل تقدرين؟ هل دلكت ماريا ظهرك بالمرهم؟ طلبت منها أن تفعل ذلك.
- لا، لم تفعل.
- لماذا؟
- لأنني لم أرها منذ وقت الغداء. كارين أحضرت لي طعام العشاء.
- اذن سأدلكه أنا. فقط استلقي على الفراش. لن يأخذ ذلك مني وقتاً طويلاً.
تقدمت كاترين نحو الفراش ولكنها لم تستلق وقالت:
- جيرد انه ليس ضرورياً.
قال بخشونة:
- لقد قلت أنني...
ومد يده يعبث بشعرها الناعم وبرفق يرفعه نحو شفتيه ويتمتم:
- كاترين اني أحبك. وأعرف أنك تحبينني أيضاً.
فوجئت به يطوقها بذراعيه، يضمها الى صدره، وبصعوبة استطاعت ان تتخلص منه وهي تقول:
- جيرد انا أسمع حركة.
ابتعد جيرد عنها مستطلعاً ولكنه لم يلاحظ شيئاً. لم يكن اي صوت هناك أو حركة في غرفة الجلوس. ما عدا صوت تكتكة الساعة الكبيرة المعلقة على الجدار.
هزت كاترين رأسها، وقالت هامسة:
- هناك من دخل الغرفة. انا متأكدة من ذلك.
- هل هذا صحيح؟ أين هو اذن؟
سار الى القنطرة وتطلع الى الغرفة الاخرى فلم يجد احداً، ثم تابع حديثه:
- لا يوجد هناك احد يا كاترين (وهزّ رأسه) آه، لقد فهمت. لعلي

فقدت عقلي.

- جيرد إني متأكدة انه كان هناك شخص ما. صدقني، ارجوك.

نظر اليها نظرة مليئة بالألم، وكأن غشاوة أزيحت عنها، وقال:

- اذهبي الى النوم يا كاترين.

حمل الصينية وهو يتابع:

- سوف اعيد هذه الى ماريا. لعلها هي التي أتت بسبب الصينية. ما عدا ماريا، لا يمكن ان يدخل شخص آخر من غير دعوة.

١١- ظهور الحقيقة

لم تنعم كاترين بنوم مريح في تلك الليلة. واحلامها أشبه بالكوابيس، مملوءة بأحداث المساء، عزمت على ان تصمد أمام هذا الرجل مهما حاول اثارة عواطفها. فلن تسمح بأن تكون لعبة في يد أي انسان. مرّ سيمون بباها مرور الخاطر، إن ما كان بينهما إذن لم يتعدّ حدود الصداقة. لم يكن حباً على الاطلاق. انها لم تحسّ نحوه في أية لحظة من اللحظات بما تحسه الآن نحو جيرد.

في الصباح كانت قادرة على ان تغادر الفراش، من غير ألم شديد. على الرغم من ان جيرد لم يكرر المعالجة في الليلة الماضية. وإنما الراحة والدفء هما اللذان عملا معجزتها. ولم تعد تحس الا بشيء بسيط من التصلّب في أنحاء جسمها. ولكن شعرت بانزعاج عندما حانت منها التفاتة ورأت علبة المرهم ملقاة على الأرض. تلك العلبة التي جاء جيرد من أجلها، وتذكرت هورس وكتفه المصاب.

انتهت كاترين من الاغتسال وارتداء ملابسها في الساعة الثامنة. وبدلا من ان تنتظر ماريا لتحضر لها طعام الافطار، نزلت هي الى المطبخ. كانت المرأة الهندية مسترخية على كرسي بجانب الطاولة المصنوعة من خشب الصنوبر، تتناول فنجاناً من القهوة، عندما دخلت عليها كاترين. فاتسعت عيناها السوداوان دهشة وقالت:

- ألم يطلب جيرد منك ان تستريحي بعض الوقت؟ ما كان عليك ان تتركي فراشك في مثل هذه الساعة من الصباح.

- الحقيقة اني اصبحت بخير. واستطيع ان أتحرك من غير ألم. وذلك

بفضل المرهم الذي أحضره جيرد.

غمزت ماريا بعينها:

- لقد أفادك كثيراً، أليس كذلك؟ ان هذا ما يسرني بالفعل.

ابتسمت كاترين ابتسامة مصطنعة وقالت:

- قال لي جيرد ان هوريس خلع كتفه. وعاد أمس الى غرفتي ليأخذ له علبة المرهم. ولكنه ذهب من دونها. لقد كان شديد الارتباك، ولا أدري لماذا.

- لا تقلقي، ليس هناك أية مشكلة، فلدينا أكثر من علبة من هذا المرهم.

احست كاترين بالاحمرار يدبّ في وجنتيها. فالمرهم اذن كان حجة. والحقيقة ان جيرد جاء الى غرفتها يسأل عنها، ترى هل جاء ليعترف لها بحبه. على كل، لأمر ما في نفس جيرد رجع اليها الليلة الماضية. وكانت سعيدة بذلك مهما كان هذا الأمر طائشاً وجنونياً. وضعت كاترين يديها المرتجفتين في جيبي بنطالها الجينز، لتخفيها عن ناظري ماريا التي قالت باختصار:

- هل أهيىء لك الفطور؟

هزت كاترين رأسها علامة الايجاب، وهي تشعر مع كل ما مرّ بها من مفاجآت انها تستطيع ان تأكل كل ما يمكن ان تقدمه لها ماريا. وبالفعل هذا ما حدث. فعجبت المرأة العجوز من ذلك وقالت وهي تأخذ الصحون الفارغة من أمامها:

- يبدو انك جائعة جداً اليوم. مع أنك بكل صعوبة يوم أمس استطعت ان تضعي لقمة في فمك.

- أمس كان أمس. أما اليوم فهو شيء آخر. . . كيف أحوال غلين؟ هل زرته؟

- مررت به في الساعة السابعة والنصف، كانت حرارته طبيعية. ويمكنني ان أقول بكل ارتياح انه هو أيضاً أصبح بخير.

نظرت كاترين الى أعلى وقالت:

- شكراً لله. وكيف حال بن؟

- ذاك الرجل العجوز؟ انه لا يزال على قيد الحياة. يكاد كبده يتمزق من

الادمان. انه لم يعد شاباً. لقد تجاوز الخامسة والستين من العمر، وعليه ان يفكر اكثر في صحته في مثل هذا السن. أليس كذلك؟

- لعله ليس سعيداً!

- قد تكونين على حق. فمنذ وفاة ولده أنجس، ساءت جميع الأمور.

- أمور؟ أية أمور؟

أدارت ماريا ظهرها وأخذت تنظف الصحون، وهي تقول:

- أظن انه أدرك ان هناك تغييرات ستحدث عندما جيرد. . . عندما السيد فريزر. . .

وأتمت كاترين كلام ماريا:

- عندما جيرد يتزوج ليزا.

أحنت ماريا رأسها وقالت:

- أظن ذلك، ولا شك ستجري بعض التغييرات اذا أصبحت هي السيدة هنا.

- آه لقد فهمت.

غيرت ماريا مجرى الحديث وقالت:

- ماذا لو تأخذين طعام الفطور الى غلين هذا الصباح. سيسعده ان يجدك بخير.

لم يكن غلين مستيقظاً عندما دخلت كاترين الغرفة. وضعت الصينية على الطاولة بهدوء حتى لا توقظه. نظرت اليه ملياً، وأحست انه أصبح مقرباً الى نفسها اثناء هذه الأسابيع. والمهمة التي جاءت من أجلها لم تعد عسيرة كما كانت في بادىء الأمر. في أي حال فانها لا شك ستكون مسرورة عند انتهاء هذه المهمة. ولكن سرعان ما تلاشت فكرة السرور، وامتلأ قلبها باليأس. لأن هذا يعني أنها لن ترى جيرد بعدئذ.

أحست كاترين وهي تقف بجانب السرير أنها كانت تدوس على شيء ما. تراجعت الى الوراء قليلا. كان شيء ملقى تحت السرير، يبدو منه جزء صغير. انحنت كاترين واذا بها تمسك بمجلة.

وساءلت نفسها ترى ما هذه المجلة؟ من وضعها هنا؟ ماريا لم تكن تسمح لغلين أن يدخل الغرفة الا بعد تنظيفها من أولها الى آخرها.

في بادىء الأمر لم تشعر ان وجود مجلة تحت سرير غلين يعني ان أجراس

الانذار قد دقت. ولكنها أصيبت بصدمة عنيفة عندما أخذت تقلب صفحات المجلة. وترى صوراً مختلفة لنساء جميلات. وعادت تتساءل، منذ متى وهذه المجلة هنا؟ وماذا يعني وجودها؟

إنها لم تلحظها من قبل. كان التاريخ يوحي بأن المجلة هي الأصدار الأخير. ترى هل عاد اليه بصره، ولم يعلم احداً بذلك؟

ارادت ان توقظه. ارادت أن تهزّه هزاً وتطلب منه ان يقول لها الحقيقة. واذا كانت هذه هي الحقيقة. إذا كان قد استعاد بصره، سيكتشف حالا أنها ليست فالنتينا. وخافت مما سيحدث.

يجب أن تخبر احداً. ولكن من؟ جيرد هو الشخص الوحيد الذي يمكنه ان يحلّ المشكلة. ولكن أين جيرد الآن؟ فهو لن يعود حتى موعد الغداء على الأقل. وحتى ذلك الحين، تكون قد انكشفت هويتها.

اذن ستخبر ليزا. فقد تكون عندها بعض الاقتراحات، وهي ليس لديها سبب واحد لتخاف من عودة بصر ابنها اليه. دفعت المجلة تحت السرير، واخذت صينية الطعام ووضعتها على الطاولة قرب النافذة. ثم اتجهت نحو الباب. لم يكن أمامها الا بضع ياردات لتخرج من الغرفة، عندما احست بحركة تصدر عن غلين. فالتفتت، فتح عينيه، جمدت كاترين في مكانها وهي تلعن حظها التعيس.

تمتم غلين وهو بين النوم واليقظة:

ـ ماريا؟

نظرت إليه كاترين من دون ان تنطق بكلمة. ولكنه سأل وهو يفرك عينيه:

ـ من هناك؟

هل يمكنه ان يراها يا ترى؟ النور كان يضيء المكان، وهي تستطيع أن تراه بوضوح. ولكنها كانت تقف في الظل. تسمّرت في مكانها وهو يسأل للمرة الثالثة:

ـ من هناك؟

ـ أنا يا غلين، هل أيقظتك؟ أنا لم أقصد ذلك. ولكني أحضرت طعام الفطور.

ـ فالنتينا، هل أنت أحسن من ذي قبل؟

قال ذلك وهو يجلس في سريره ويرقّب الغطاء أمامه استعداداً لإخذ الصينية. ولاحظت كاترين ان اهتمامه بذلك كان أكثر من اهتمامه لمجيئها. فصعد الدم الى وجهها ترى هل غلين فعلا يستطيع ان يرى؟ ترى هل هو يراها الآن؟ ومن قبل أن تتأكد من شيء تناولت صينية الطعام ووضعتها أمامه.

رفع نظره اليها. وأخذ يداعب خدها بعاطفة جيّاشة. فاحست كأنها خدرت في مكانها، وعيناه الزرقاوان الصافيتان، تواجهان عينيها البنفسجيتين القاتمتين.

احس بها وهي ترتجف فسأل وهو يضع يده بلطف على ذراعها:

ـ هل هناك ما يقلقك يا فالنتينا؟ لماذا أنت عصبية الى هذا الحدّ؟ هل اخفتك؟ أنا لم أقصد هذا.

خارت قواها. ولكنها اصطنعت ضحكة وقالت:

ـ لا يا غلين ليس هناك من شيء. لكني ما زلت ضعيفة بعض الشيء. انها لسقطة شديدة تلك التي حلّت بي. أليس كذلك؟

ـ هل أنت متأكدة انك بخير؟

ـ أنا بخير ويسرني أن أرى صحتك قد تحسنت كثيراً. اخبرني جيرد أن حرارتك كانت مرتفعة.

ـ لم يكن هناك شيء هام. انه فقط من الاجهاد على ما أظن. ركوب الخيل، كثرة الزوار، سقوطك عن ظهر الحصان، هذا بالحقيقة صدمني.

تمتمت كاترين:

ـ فعلا لقد جعلت من نفسي اضحوكة. أليس كذلك؟ حسناً سأذهب وأتركك تتناول طعامك. انه صباح غائم لا أظن اننا نستطيع الخروج اليوم.

تركها غلين تذهب، واعداً ان يلحق بها الى الطابق الأرضي، بعدما يرتدي ثيابه. ابتسمت كاترين، فكان من الواضح أنه لا يراها، وقالت:

ـ إذن سأراك فيما بعد.

أغلقت كاترين الباب وراءها وهي تشعر بشيء من الحرية. وعندما نزلت وجدت ليزا هناك بكامل زينتها وقد ارتدت ثياب الخروج. وبدأت ليزا بالتحية:

- صباح الخير. هل استيقظ غلين؟ أخبرتني ماريا انك أخذت اليه طعام الفطور.

- أخشى ان اكون انا التي أيقظته. أظن ان جيرد أخبرك اني سقطت عن ظهر الحصان.

- هذا ما كنت أخشاه. لقد حاولت ان احذرك.

كانت كاترين تعلم ان خوف ليزا لم يكن عليها، وأجابت بابتسامة صفراء:

- آه، نعم.

هزت ليزا كتفيها وقالت:

- لكنك تبدين بحالة جيدة هذا الصباح. وبما أنك لم تخرجي من المزرعة منذ وصولك الى هنا، فانه ليسرني ان ترافقيني في السيارة الى موزباي.

تراجعت كاترين مدهوشة. لم تكن مستعدة لمثل هذه الدعوة ولم تعرف ما تقول:

- لكن ماذا عن غلين؟ عليّ ان اسأله أولاً.

- حسناً، لا أظن أنه سيعارض. لقد حظي باهتمامك كثيراً طيلة هذه المدة.

كان الصبح غائماً كئيباً مما جعل كاترين ترتدي بنطالاً صوفياً وسترة. كما ارتدت معطفاً كانت قد أحضرته للمناسبات. ولكنها عجبت من ليزا عندما رأتها تحتذي جزمة في قدميها. فهي لا تظن انه من المناسب ان تسير في أسواق موزباي وفي قدميها مثل هذه الجزمة. ولكنها قالت في نفسها، ان والدة غلين تعرف ذلك أكثر منها.

كانت ليلة معتمة عندما اتوا من المطار فلم تشاهد كاترين شيئاً. وكان يسرّها ان ترى المناظر المحيطة في وضح النهار.

- لماذا قررت المجيء الى كندا يا كاترين؟

فاجأتها ليزا بهذا السؤال عندما انعطفتا الى يسار الشارع العام، في طريق وعرة.

اجفلت كاترين وقالت:

- لماذا؟ أنت تعرفين لماذا؟ طبعاً لأساعد غلين. لأساعده حتى يستعيد بصره.

- لكن جيرد قد أخبرني أنك رفضت البحث في هذا الأمر نهائياً. وذلك في اليوم الأخير، قبل ان يخبرنا غلين بموافقتك. كما أعلمني أيضاً انك لن تفعلي شيئاً من غير موافقة خطيبك.

- أنا لست مخطوبة يا سيدة ليزا. ما كان بيني وبين سيمون صداقة فقط.

- تقولين كان، هل يعني أنكما لستما أصدقاء الآن؟

- سيمون لم يقتنع بالطريق التي أسيرها ولذا قررنا ان نعطي بعضنا مهلة للتفكير.

لاحظت كاترين ان تفكير ليزا لم يكن منصباً على قيادة السيارة. وسمعتها تسأل:

- من الذي غيّر رأيك؟ غلين أم جيرد؟

حبست كاترين انفاسها وقالت:

- لماذا؟ غلين بالتأكيد.

- بالتأكيد؟ انك لم تقنعيني يا كاترين.

- لا أظن أن هذا يهمّ الآن يا سيدة ليزا. وجودي هنا قد حقق غرضه. ووجدت مجلة في غرفة غلين هذا الصباح. كانت تحت السرير. وهذا يعني انه ابتدأ يستعيد بصره.

ذهلت كاترين عندما لم تبد ليزا أي اندهاش من هذا الخبر وسمعتها تقول من غير اهتمام:

- أخبرني. أخبرني أنه ابتدأ يستعيد نظره منذ أيام ثلاثة بالضبط منذ سقطت عن الحصان.

- منذ ذلك الحين؟ ولكن لماذا لم يخبرني؟ شكراً لله. ظننت ان هذا لن يحدث أبداً. أكاد لا أصدق! رائع! رائع. ما عدت أطيق الانتظار. أريد ان أراه.

قلبت ليزا شفتيها وقالت:

- لا تستطيعين؟ على الرغم من انك تعرفين ان هذا معناه، ان وجودك هنا لم يعد ضرورياً.

قالت كاترين بجفاء:

- هذا لا يهمني. لكن اذا كان غلين يستطيع ان يرى، فمعنى ذلك انه قد عرف.

- عرف انك لست فالنتينا؟! نعم، هو يعرف. ويبدو أنه كان يعرف ذلك طيلة الوقت.

- لكن كيف؟ شعري . . .

سألت كاترين لاهثة وهي ترفع يديها تلمس الشعر المستعار. لكن ليزا هزت رأسها وقالت:

- ليس أسهل من ذلك. على كل ان صديقك سيمون ترافس هو الذي اخبره.

- سيمون؟

اخرجت ليزا علبة السكائر. ووضعت واحدة بين شفتيها وقالت:

- تماماً. ذهب الى المشفى قبل أن تغادر انكلترا. كان من الواضح انه أراد ان يمنعك من المجيء معنا بأي ثمن. أما أنا وجيرد فلم نكن نعلم شيئاً عن هذا الأمر.

مرّت بها لحظة صمت ثم تابعت كلامها:

- من الواضح انه شك بأمرك من قبل. من طريقة معاملتك، وتصرفاتك. طبعاً، هو يعرف أختك جيداً، وقد لاحظ الفرق بينكما. تلك الفوارق التي يميزها المحبون.

- إذن لماذا لم يطلعني على ذلك؟

- لا أعرف. ربما شعر أنك وأختك سخرتما منه. فأراد ان يسخر منك هو أيضاً.

احمرّ وجه كاترين وقالت:

- ربما لم يكن هذا قصده. . .

- والآن وبعد ان عرفت الحقيقة، ماذا ستفعلين؟

- ماذا سأفعل؟ أنا، اخشى. . .

قاطعتها ليزا وقالت:

- أعني، انه ما عليك الآن الا ان تجمعي حاجياتك وتعودي الى انكلترا.

- أعود الى انكلترا؟

احتقرت كاترين نفسها وهي تردد كل ما تقوله ليزا. ولكن الدوار الذي أحست به عند سماعها كلام ليزا لم يترك لها مجالا لأن

تفكر منطقياً.

تابعت ليزا:

- بالتأكيد. فلم يعد هناك سبب تبقين من أجله. هل هناك؟

- أظن لا. ولكن يجب ان أتكلم مع غلين اولا. وأعرف رأيه.

- أنت تعرفين ان غلين يتوقع بقاءك حتى نهاية إجازتك.

- إذا كان يريدني أن. . .

قالت ليزا بخشونة:

- لكن أنا لا أريدك ان تبقي يا كاترين. وجيرد أيضاً لا يريدك ان تبقي. لقد أصبح وجودك مربكاً لكلينا.

أحست كاترين بالنار تلهب وجهها وقالت:

- أنا لا أعرف ماذا تعنين.

صرخت ليزا في وجهها:

- آه، أظن أنك تعرفين. هل تحسبين أني لم ألحظ الطريقة التي تنظرين بها إليه. الطريقة التي تعلقين بها على كل كلمة يقولها. انه شيء يدعو للغثيان. ان جيرد كثير الأدب، لم يرض أن يخبرك انك جعلت من نفسك سخرية للجميع.

- هذا ليس صحيحاً!

ليزا خففت السرعة عند مفرق طرق، وانعطفت الى درب ضيق وقالت:

- بل صحيح ايتها الفتاة العزيزة. ان جيرد رجل وهو على استعداد لأن يتناول اي شيء يقدم له. والآن هل فهمت ما أعني؟

أحست كاترين بالدوار يعود إليها، وبصعوبة خرجت الكلمات من فمها:

- أنت مخطئة. . .

- لا. لست مخطئة. عندما جاء الى غرفتي الليلة الماضية شممت عطرك يفوح منه.

جيرد إذن لا يحبها. . . إنه كاذب في مشاعره. فقد ذهب من عندها رأساً الى غرفة ليزا. أدارت رأسها نحو النافذة، واغمضت عينيها. وهي تقول في نفسها: بالتأكيد ان ليزا غيورة، ولها أسبابها. فاذا كانت تريد ان

تتزوج من جيرد، لها الحق ان تخاف ان يفلت من يدها. وان تعترض على أية علاقة أخرى. أما هي، فليس لها أي عذر، فهي تعرف علاقته بأرملة اخيه منذ البداية. ولذا فانها أكبرت ليزا في نفسها، لأنها فضلت ان تحدثها على انفراد، بدلا من ان تربكها أمام أفراد العائلة بأكملها.

وقفت السيارة. فأخذت كاترين نفساً عميقاً قبل ان تفتح عينيها وتلتفت لتخاطب السيدة ليزا. وهي تدرك ان التصرّف الشريف الذي يجب ان تقوم به، هو ان ترحل مباشرة فور عودتها الى المزرعة. وقطعت أفكارها فجأة بدهشة عندما وجدت نفسها وحيدة في السيارة. ففي تلك اللحظات التي كانت كاترين تعذب نفسها فيها بالشعور بالذنب والحزن، فتحت ليزا الباب ومضت. وغاص قلب كاترين في صدرها لمجرّد التفكير انه قد يكون حلّ بليزا اليأس لدرجة أنها من الممكن ان تؤذي نفسها. نادت:

- سيدة ليزا.

رعب شديد خيّم عليها، وهي تنظر حولها، من غير أن ترى احداً. ترى في أي مكان هما؟ فالأراضي المحيطة جميعها تبدو رمادية اللون صخرية قاحلة. لم تذكر انهم مرّوا من هذا الدرب الليلة التي قدموا فيها من المطار. فهي لا شك طريق أخرى. أخذ قلبها يخفق بشدة عندما خطر ببالها ان ليزا جاءت من هنا عمداً لأنها كانت مصممة على ان تقدم على عمل يائس.

- سيدة ليزا.

فتحت كاترين باب السيارة وخرجت. الطقس كان بارداً جداً، أحست بالبرودة كالسكاكين تجرح جسمها، بالرغم مما كانت ترتديه من ثياب. ومع ذلك فالريح لم تكن شديدة لتزيل الضباب وتتمكن ان ترى ما يحيط بها.

- سيدة فريزر.

نادت مرة ثالثة بأعلى صوتها. ولكنها لم تسمع سوى رجع الصدى. آه لو لم يكن ضباب هناك، لو أنها تستطيع ان ترى أين هي. لا أثر للحياة على الاطلاق، ليزا اذن لا يمكنها ان تجد مأوى لها في بيت منعزل. لا شك انها تركت السيارة لأمر ما. وكاترين لا يمكنها ان تجلس فقط وتنتظر عودتها. اذا حدث شيء لليزا، فانها لن تسامح نفسها. عليها ان تفعل شيئاً.

- سيدة ليزا.

مرة اخرى لم تسمع سوى رجع الصدى. وضعت يديها في جيبيها، وابتعدت عن السيارة في الطريق الوعرة، علّها تجدها في مكان ما. تسمّرت كاترين في مكانها، لقد سمعت صوت محرّك السيارة. كان من الصعب رؤيتها خلال الضباب الكثيف. ليزا لم تكن يائسة اذن، لعلها تركت السيارة لحاجة ضرورية.

التفتت كاترين لتعود الى السيارة. ولكنها ادركت ان صوت المحرّك يبتعد عنها. يا للسماء. ليزا تسير في الطريق المعاكس. لا شك انها لم ترها بسبب الضباب.

اعتراها خوف شديد. ولكنها اخذت تهدىء من روع نفسها معتقدة، ان ليزا سترجع عندما تدرك خطأها. وليس من الضروري ان تقلق من غير سبب. ولكن لماذا لم تجبها عندما سمعت نداءها؟ فهل هناك من سبب معقول لديها لتتركها في هذا المكان المنعزل المخيف؟

أجل ان ليزا كانت تكرهها. كانت تغار منها. تريدها ان تغادر شلالات موز. وفجأة تذكرت الحركة التي سمعتها من غرفة الجلوس الليلة الماضية. عندما كان جيرد في غرفتها. فقد يكون ما سمعته فعلا صوت اغلاق باب، وقد تكون ليزا هي التي أغلقته.

رفعت كاترين كتفيها بحيرة. وابتدأت تسير ثانية. وعادت تقول في نفسها. من الممكن الا تحبها ليزا. ومن الممكن ان تغار منها ايضاً. اما ان تهجرها في هذا المكان البارد المخيف، بعيدة عن الاماكن المأهولة أميالا وأميالا، فهذا ما استبعدته كاترين. لا يمكن ان تكون ليزا مجرمة الى هذا الحدّ. فلعلها تريد ان تخيفها فقط. تلعب معها لعبة بغيضة. ولكن بعدما تتعب من تعذيبها، لا شك سترجع اليها.

استمرّت كاترين تخاطب نفسها وهي ترتجف من البرد والخوف. انها لا بد راجعة اليها. صحيح ان ليزا متهوّرة ولكن لا يمكن ان تكون بلا ضمير. وفجأة تذكرت الحذاء الثقيل الذي كانت تلبسه ليزا في قدميها عندما غادرتا شلالات موز. ذاك الحذاء الذي لا يمكن ان يناسب السير في شوارع المدينة. ولكنه يلائم تماماً تسلق الصخور والاختفاء عن الأنظار.

١٢- عودة الى الحياة

كان جيرد في القاعة، عندما عادت ليزا الى شلالات موز. كان مستلقياً على احدى الأرائك، يطالع بعض الصحف. ففوجئت به هناك في هذه الساعة من الصباح. هتفت قائلة:

- جيرد ظننتك ذهبت الى كالجري. ألم تقل ذلك مساء أمس؟

ألقى الصحيفة التي كانت بيده جانباً، ووقف قائلا:

- هل قلت ذلك؟ قلت أشياء كثيرة ليلة أمس يا ليزا.
- حسناً، احسب أنني سمعت خطأ. سوف أصعد الآن...

اعترض جيرد طريقها وقال:

- انتظري لحظة. لماذا لم تخبريني عن غلين؟ لماذا لم تخبريني ان بصره عاد اليه؟ مع أنه طلب منك ذلك.

حركت ليزا رأسها بصبر نافد وقالت:

- آه يا عزيزي، ما أردت ان ابعث فيك الأمل من غير ضرورة. وأنت تعرف كيف تسير مثل هذه الأمور...

قال جيرد بفظاظة:

- لا، لا أعرف. زيديني معرفة. يبدو انك احتفظت بهذا الخبر فقط لاغاظتي.

رفعت ليزا يدها لتربت على خدّه مترددة، ولكنه أبعد يدها عنه، ثم قالت:

- آه يا جيرد، توقف عن النظر اليّ بهذه الطريقة، كأنك تحتقرني. لقد اخبرتك أني فعلت ذلك لمصلحتك.

- وليس بسبب ما أخبرتك عن شعوري نحو كاترين؟

قلبت ليزا شفتها السفلى دلالة على عدم الاهتمام وقالت:

- لا. لماذا أفعل؟ أنا لا أتذكر نصف ما قلته لي الليلة الماضية.
- ولكنك تذكرين ما قلته عن كاترين.
- آه يا جيرد كانت غلطة من الأصل ان تحضر هذه الفتاة الى هنا. وقد قلت لك ذلك في حينه. ويبدو ان غلين كان يعرف حقيقتها طيلة الوقت.
- هذا ما أخبرني اياه.
- هل تحدثت معه؟
- هذا الصباح. كنت على حق، فقد كانت خطتي أن أذهب اليوم الى كالجري ولكني قبل ذلك ذهبت لأتفقد هورس بعد الذي أصاب كتفه. وعندما عدت الى البيت، عرفت من ماريا انك وكاترين خرجتما سوية، ولذا صعدت الى غلين لأعرف منه الى أين اتجهتما اذا كان يعلم ذلك.
- آه، الآن فهمت.

ضاقت عينا جيرد وقال:

- أين كاترين؟

اضطربت ليزا وقالت:

- في مكان ما هنا، على ما أظن. كيف يمكنني أن أعرف؟ أنا لست حارسة عليها.
- هل عادت معك؟
- لا.

عضت ليزا على شفتها، وهي تتطلع الى نظرات الغضب التي كانت تطلّ من عيني جيرد، الذي شدّها من كتفها، وقال:

- ماذا تعنين بقولك لا؟ أين هي؟ أين كاترين؟ لن أدعك تذهبين قبل ان تقولي.

نظرت ليزا اليه بعينين كسيرتين وقالت:

- أنا لا أعرف يا جيرد حقاً لا أعرف. لو كنت أعرف لأخبرتك.

حدق جيرد في عينيها وكرر السؤال:

- أين هي؟ أين تركتها؟ لقد خرجتما معاً. لماذا لم ترجعيها معك؟
- يا عزيزي. انه عبث مني. أنا أعرف ذلك. وأعلم أنك ستغضب

كثيراً. لكني ساخبرك الحقيقة. أوقفت السيارة في موزباي، واتفقنا ان نلتقي في المكان نفسه وحددنا موعداً لذلك. ومضينا كل في جهة. وعندما عدت لم أجد كاترين قرب السيارة، رجعت وحدي.

- تركتها في موزباي؟

جنّ جنون جيرد. ولكن ليزا لم تقل شيئاً. فقط استمرّت بالنظر اليه بحرارة ورجاء ليتركها تذهب الى غرفتها. ولكنه تابع بخشونة:

- ليزا، انت قذرة. انت انانية. أود لو الوي عنقك اللعين.

حبست ليزا انفاسها وهي تتألم وقالت:

- يا عزيزي، كيف يمكنك ان تكون قاسياً الى هذا الحدّ وقد كنا متفقين ان يكون كل منا للآخر؟

صاح جيرد بقسوة، وهو في حالة لا تسمح له بأن يقدر مشاعرها:

- كل منا للآخر؟ لعل هذا تفكيرك انت وحدك! ولكن الواقع لم يكن احدنا يعني شيئاً بالنسبة للثاني يا ليزا، لا شيء!

امسكت بكمه وقالت:

- جيرد، هذا ليس صحيحاً. كنت تريدني حتى من قبل ان يولد غلين.

أجاب جيرد بقحة:

- كفّي عن التصرف كالصغار. لقد كنت صغيراً في ذلك الوقت. كنت في الثامنة عشرة، اظن أني كنت مغروراً، لان امراة أكبر مني أظهرت لي أنها مفتونة بي. واذا لم أكن احترم أخي على صغر عقلي، كيف استطعت انت ذلك؟ والآن أين كاترين؟ أين يمكنني ان اجدها؟

- هذه مشكلتك.

توجهت ليزا نحو الدرج، في الوقت الذي دخل فيه بن. نظر الى ابنه مستفسراً، ثم التفت الى ليزا وسألها:

- هل تعرفين ان عجلة السيارة...

أجابت ليزا قبل أن يكمل حديثه:

- أنا أعرف، وسوف أحضر من يصلحها.

قال بن وهو يرمق جيرد:

- يبدو أنك تحتاجين لعجلة جديدة لأنها ممزقة. ولا عجب أن يحدث ذلك في تلك الطرق الجبلية.

اسودت عينا جيرد وصاح سائلاً:

- أية طرق جبلية؟

أخذ بن ينظر الى وجه ولده المكفهرّ تارة، وتارة الى ليزا التي كانت تحاول الهرب الى الطابق العلوي، من غير ان يفوه بكلمة. ولكن جيرد لم يترك لها مجالا للصعود وأمسك بها بشدة، وصرخ بها بوحشية:

- ليزا، أية طرق جبلية هذه؟ أجيبي!

أخذ جسمها يرتجف تحت يده ونظراته خوفاً. وقالت بصعوبة:

- لا أعرف. هل يجب عليّ أن أعرف؟ لا أعلم عن أي شيء يتكلم. عندما كنت في طريقي الى هنا، كان هو في المكان الذي ينفرد فيه منكباً على شرابه. انه لا يدري عن أي شيء يتكلم. فهو لا يحق له ان يعيش بين اناس محترمين.

لم يأخذ جيرد بكلام ليزا، وظلّ ممسكاً بها. ونظر الى أبيه يسأله:

- ماذا تعرف؟ تكلم يا رجل!

شعر بن أن الوضع كان متأزماً بين ابنه وليزا، فنظر اليها من غير رغبة وأجاب:

- العجلة يمكن تبديلها بسهولة ولا شأن لي بها. لكن...

قاطعته ليزا ببرود:

- لا، طبعاً ليس من شأنك...

لكن نظرات جيرد القاسية أجبرتها على السكوت. وقال لأبيه:

- أكمل يا أبي، ماذا رأيت؟ اظن انك رأيت ليزا وانت عائد من المدينة. أليس كذلك؟

شهقت ليزا ورددت بعبوس:

- المدينة.

أحنى جيرد رأسه وقال:

- ألم تعرفي أن والدي ذهب الى المدينة؟ أظن انك لا تقدرين رؤيته اذا كنت ذهبت... آه يا الهي (شحب لونه) كاترين، اين كاترين؟ قولي ماذا عملت لها؟

أمسك جيرد بكتفي ليزا وهزها بعنف. وأسنانها تصطك وهي تحاول أن تجيب:

- ماذا فعلت؟ أنا لم أفعل شيئاً. توقف عن هزي. لقد آذيتني.
- سأفعل أكثر من هذا، اذا اضطررت لذلك.
قال جيرد ذلك بقسوة بالغة. ثم التفت الى ابيه يشرح له الأمر:
- أبي، ليزا أخذت فالنتينا - كاترين - معها ولكنها لم ترجعها. فأين رأيت العربة؟ من أي اتجاه جاءت؟ يا الله. اذا كانت تركتها هناك، فيجب ان نجدها على الفور.
ضبط بن أعصابه، غير عابىء بليزا الباكية، وقال دون تردد:
- اهدأ يا ولدي، اهدأ. رأيتها على الطريق عند منعطف ممر جرفتر. ولكنها لم ترني، فقد كانت تجد صعوبة في قيادة السيارة على تلك الطريق بسبب العجلة المثقوبة. ولكني تبعتها.
التفت جيرد الى ليزا وهو يهزها وقال:
- هل ستخبرينني أين هي؟ أين تركتها؟ أو تريدين مني ان اخرج الكلمات من فمك بالقوة.
استعادت ليزا شيئاً من رباطة جأشها، وقالت:
- لا تستطيع...
- حاولي وجرّبيني. حقاً انك لمجنونة. الويل لك ان كنت آذيتها.
تجهّم وجه ليزا عند سماعها تهديده وقالت:
- أنا لم افعل شيئاً لها. فقط أردت ان أرعبها قليلاً. هذا هو كل شيء، وقد صممت ان أعود اليها.
قال جيرد وهو يشكّ في أقوالها:
- هل حقاً كنت ستعودين اليها؟ كنت تتوقعين انني سأغيب طول النهار في كالجري. هل تذكرين ذلك؟ ولو لم اكن هنا عند عودتك، من كان سيحزر أين هي كاترين.
- ما الذي يجري هنا؟
جمد الجميع في أماكنهم على صوت غلين. وهو ينزل درجات السلم ببطء. كان مرتدياً ثيابه، ممشطاً شعره، وعلى عينيه نظارتين قاتمتين. وقال متابعاً:
- لماذا تملأون البيت صراخاً؟ ما الخبر؟ هل هو اجتماع خاص او يمكنني الانضمام إليكم؟

وقبل ان يتمكن جيرد أو ليزا ان ينطقا بكلمة أوضح بن الأمر باختصار:
- والدتك أخذت سيدتك الشابة الى الجبال، وتركتها هناك.
بدت الدهشة على وجه غلين وظهرت معها علامات الخوف، وقال:
- سيدتي الصغيرة... هل تعني كاترين؟
بدا الارتباك على وجه بن، وردد:
- كاترين؟ وجيرد يقول «كاترين». ما الخبر؟
ولكن لم يكن لدى جيرد وقت ليوضح له الأمر. وقال لأبيه:
- سأشرح لك الأمر فيما بعد.
ثم سحب ليزا وراءه الى الباب وقال:
- أقادمة أنت معنا؟ سوف أطلب من هورس ان يرافقنا. فكلما كثرت العيون التي تبحث عنها يكون أفضل.
قال غلين بشوق وهو ينظر الى عمه:
- أريد ان اذهب معكم.
رفع جيرد يده عن ليزا وقال:
- غلين...
قاطعه غلين بثبات:
- اعرف، اعرف انها ليست مغرمة بي. ليس من الضروري ان توضح لي ذلك. انا لم أعد أعمى. كما انني أحسست بالمشاعر المتبادلة بينكما منذ الليلة الأولى التي وصلنا فيها الى هنا.
نظر اليه جيرد يريد ان يقول شيئاً. ولكن غلين هزّ رأسه وقال:
- احضر أنت هورس، بينما أرتدي معطفي. وكما قلت كلما كثرت العيون التي تبحث عن كاترين يكون أفضل.
كانت كاترين ترتجف من البرد، وتكاد تجمد جميع أطرافها. مع انها كانت تلبس قفازاً وتضع يديها في جيبي معطفها. سرى الخدر في أصابعها. وأما قدماها فقد فقدتا القدرة على الحسّ حتى بالألم منذ فترة طويلة.
كم مرّ عليها من الوقت منذ تركتها ليزا؟ لا تدري. ساعة، ساعتان؟ كانت خائفة من النظر الى ساعتها. خائفة ان يكون الزمن الذي مضى اكثر مما تظن. وهذا يعني ان الظلام اوشك ان يظلل تلك الممرات الصخرية. يا لله ماذا عساها تفعل؟ أحست كاترين كأن الدم توقف عن الجريان في

عروقها وقلبها كفّ عن الخفقان في صدرها. جمدت عيناها في عتمة الضباب. وخيّم عليها رعب قاتل. انها هي التي جنت على نفسها. ما الذي جعلها ترافقهم الى كندا؟ كان بامكانها ان تصرّ على الرفض. ولكن الآن ماذا ينفعها الندم؟ يجب ان تجد لنفسها حلا لتخرج من ممرّ الرعب هذا. حاولت ان تشجع ذاتها، والا تركن الى الجمود. وحدقت في الضباب، وأطالت التحديق لقد خمّنت اين هي عندما استطاعت ان تلمح الصخور الشاهقة الشديدة الانحدار التي تحيط بها.

لا شك ان هذه هي الجبال التي سبق وشاهدتها من غرفة نومها في المزرعة وسحرت بها. هي الجبال التي أشار اليها غلين يوم خرجا لركوب الخيل وقال أنها خطرة.

والآن ضاع سحر جمال تلك المرتفعات، وأسدلت عليها ستائر من الخطر المريع. ومع ذلك حاولت ان تهدىء مخاوفها. ولكنها ارتعدت على حين غرة، لم يكن من البرد، لم يكن من الجوع، لم يكن من الخوف ان تموت رعباً فقط، بل انتابها حدس رهيب، بأنها لم تكن وحدها في هذا الممر. هناك شيء ما، أو أحد يطاردها خلسة. وصوّر لها خيالها ان هناك عيون تلمع وسط الضباب تلاحقها. واشتد بها الذعر، اذ تذكرت أنها قرأت في كتاب الدليل عن هذه الجبال قبل ان تغادر انكلترا، ان هناك دببة وأيائل تعيش في هذه المناطق. ومن المعروف ان هذه الدببة تهاجم المارة.

فاذا كانت مظاهر الحياة المدنية التي تحيط بشقتها هناك تبدو لها مرعبة عندما تكون وحيدة، فكيف وهي في هذا المكان النائي عن كل مظهر من مظاهر الحياة، الا من تلك الوحوش التي تتلصص متوارية عن الأنظار!

مع ذلك كانت كاترين متأكدة ان ليزا لا بد وان ترجع اليها، ولكنها هي التي فقدت الأمل بسرعة.

وقفت كاترين وقامت ببعض الحركات لتنشط جسدها المتجمّد، وقررت المسير. ان الدرب الذي سارت فيه ليزا بسيارتها كان واضحاً. وعليه فلتبدأ من هناك. مشت كاترين، ومشت. ولكن الرذاذ المتواصل أضاع معالم الطريق الرطبة، ولم تعد قادرة ان تتأكد ان كانت تسير في الممر الصحيح ام انها ضلّت عنه. احست كأنها تسير بانحدار بسيط. ولكن الى اي اتجاه؟ لا تدري.

خشيت ان تكون قد دارت بطريقة ما الى الخلف، من حيث لا تشعر وسط هذا الضياع الذي وقعت فيه. وأنها تسير الآن أبعد فأبعد بين الجبال بدل الخروج منها.

مع كل الافكار التي راودتها، لم يكن من الصعب عليها ان تبقى نشيطة يقظة. ولو أنها كانت متأكدة أنه سيحلّ بها التعب الشديد ان عاجلا أم آجلاً. فهي ليست بصحة جيدة، ظهرها لا يزال يؤلمها من السقطة التي حدثت لها في الوادي، بل زادت آلامها من هذا الصقيع الذي يهاجمها. ولا شك كلما أجهدت نفسها بالاستمرار في السير بين تلك السلاسل من الصخور، سوف تفقد القوة التي تمكنها من الرجوع، هذا اذا استطاعت ان تجد طريقها.

فجأة ادركت كاترين انها ليست وحيدة مع مخاوفها، ولا كانت هي الدببة التي تترصدها. انه صوت بوق سيارة بدوي آت من بعيد. كان الصوت واضحاً حتى لاذنيها المتجمدتين. لقد سمعته بالفعل بعدما فقدت الأمل في التصديق بأن ليزا عادت الى رشدها.

أخذت تتعثر كيفما مشت. أسرعت باتجاه الصوت، تحاول ان تصيح بأعلى ما تستطيع ولكن صوتها لم يكن يخرج من حلقها الجاف الا بصعوبة. الصرخات التي كانت تطلقها مزيج من الكلمات المتقطعة والنشيج.

ـ ليزا. هنا أنا، أنا هنا!

بعد دقائق غمرها نور السيارة. ولما تأكدت من النجاة، خذلتها قدماها، وسقطت على الأرض تبكي. تبكي الساعات الطويلة التي أمضتها في الخوف والرعب. لم تعد تبالي بأفكار ليزا بها، اذا كان يرضي روحها الشريرة أن تراها جاثية على الارض ذليلة هكذا. لم تعد تبالي بشيء الا ان تهرب من هذا المكان الرهيب.

ـ كاترين.

في باديء الأمر ظنت أنها أصيبت بالهلوسة. مع انها كانت متأكدة انها سمعت صوت بوق سيارة، ورأت انوارها. وايقنت بالنجاة. ولكن عندما نطق جيرد بأسمها في تلك البقعة الشائكة الصخرية المخيفة، تأكدت انها كانت تتخيّل، وأن ما سمعته وما رأته كان من صنع أوهامها. فأحنت رأسها اكثر فاكثر باستسلام حتى كاد يلتصق بالأرض.

- كاترين... يا الهي. اذا الحقت بك أذية، أقسم باني سأقتلها.

تكلّم جيرد ثانية، وعندما شعرت بيدين قويتين ترفعانها عن الأرض تمنت ان يكون ذلك حقيقة لا حلماً. وبالفعل لم يكن حلماً. كان هناك بن وهورس أيضاً ينزلان من السيارة.

شعرت بأن جيرد كان يرتعش أيضاً. فأحاطته بذراعيها لتبعث الاطمئنان في قلبه. مدّ يده الى رأسها، ورفع عنه الشعر المستعار، وألقاه على الأرض. ثم لفها بمعطفه ليبعد عنها البرد الذي اخترق عظامها.

- يا إلهي. كاترين لقد كنت كالمجنون. ولو أنك أصبت بأذية لكنت قتلتها. هل تعرفين ذلك؟

- لكنها لم تفعل. ولا بد أنها أعلمتك أين تجدني والا كيف اهتديت الي بهذه السرعة؟

تأوه جيرد، في الوقت الذي وضع بن يده على كتفه ثم قال:

- أكثر من أربع ساعات ونحن نبحث بين هذه الصخور. حتى كدنا نفقد الأمل (تابع بن بهدوء، وهو يمسك ذراع كاترين) جيرد أدخل الى السيارة. الا ترى ان الفتاة تكاد تتجمد من البرد؟ يمكنك تأجيل الحديث حتى تعيدها الى المنزل.

قال هورس:

- جيرد أدخل السيارة، واجلس في الخلف. وأنا سأقودها.

أفسح جيرد لكاترين كي تتقدمه. ثم جلس الى جانبها. نظرت كاترين بشيء من الارتياب الى ليزا التي كانت تجلس في المقعد الخلفي. أما الأخرى فقد تطلعت اليها بعينين ملؤهما الحقد. وقالت ببرود:

- أرأيت يا جيرد. انها بخير. ولا ضرورة لكل ذلك الرعب الأحمق الذي أبديته.

- ليزا، اصمتي.

رأت كاترين وهي تلقي برأسها على كتف جيرد ان غلين كان يجلس على المقعد الأمامي. فمد يده يربت على يدها وقال:

- اظن ان كلاً منا لديه ما يخفيه. أليس كذلك؟ هل تسامحينني على خداعي لك طيلة هذه المدة؟

- اني آسفة...

- لننس الموضوع. لقد أدركت منذ البدء، انه لا يمكن ان تكوني فالنتينا من الطريقة التي بها تتصرفين. وأخيراً اخبرني جيرد عن هروبها. اما السبب الرئيسي لالحاحي على مجيئك معنا، كان لأرد الصفعة لكليهما. فالنتينا وصديقك سيمون. ولم أكن أعلم في بادىء الأمر انه كان لجيرد مآرب آخر.

كان هورس يقود بسرعة. والسيارة الكبيرة تقفز قفزاً على طول الطريق. ولذا قطعوا المسافة في وقت قصير. وما عرفوا الا والسيارة تقف أمام المنزل يطالعهم وجه ماريا الشاحب ينطق بالكآبة والقلق.

نزل جيرد من السيارة، مخاطباً المرأة المندية بجفاء. فلم تسمعه كاترين يخاطبها بمثل هذه اللهجة من قبل:

- هيئي حماماً حاراً. لقد وجدنا كاترين. ولكن الرطوبة اخترقت جسمها حتى العظم. ثم خذي لها حساء ساخناً الى غرفتها. لا شك انها جائعة أيضاً.

ابتسمت للفتاة، ثم دخلت تنفذ الأوامر. تبعها جيرد وهو يحمل كاترين الى غرفتها غير آبه باعتراضاتها. وبعد ان هيأت ماريا الحمام غادرت الغرفة وكذلك فعل جيرد.

بقيت كاترين فترة في المياه الساخنة، تستمتع بدفئها، بعد ذلك الصقيع الذي جمّد جسمها. ولم تخرج منها الا بعدما احست بالحرارة تعود الى اوصالها، وتعيد اليها نشاطها وحيويتها.

استلقت بارتياح فوق سريرها تبعد عن ذهنها جميع الأحداث الرهيبة التي مرت بها. ولا تفكر الا بجيرد. لا شك انه يحبها. وهي بالتأكيد كانت تحبه.

ولما رجع اليها بعد حين، كان بودّها ان تسأله عما حدث عندما عادت ليزا بدونها ولكن الخجل من جهة، وعدم رغبتها بالتدخل في علاقاتها الشخصية من جهة اخرى، اسكتاها عن الكلام. حتى فاجأها جيرد بسؤال دون ان ينظر إليها:

- اخبريني، هل ستتزوجين سيمون؟ أعني هل هذا ما تريدينه؟ أم ستكون لدي الفرصة لأثنيك عن ذلك؟

اتسعت عينا كاترين. ولكنه كان ما يزال ينظر في غير اتجاهها وتابع:

- في الليلة الماضية أعطيتك مهلة لتجيبي. أما الليلة فلا.

امسكت كاترين أصابعه بحنان وقالت:

- جيرد، كنت أظن أنك تريد ان تتزوج ليزا. هذا ما سمعته منذ وصولي الى شلالات موز...

- لكن هل سمعت هذا مني؟ إني أحبك يا كاترين. فهل تحبينني كما أحبك؟

همست كاترين بعذوبة:

- انت تعرف لقد أحببتك مذ رأيتك للمرة الاولى. ومن ذلك الوقت عرفت ان علاقتي بسيمون لن يكتب لها الاستمرار.

- اسمحوا لي.

كان الصوت صوت ماريا، تقف عند القنطرة. وتابعت:

- كان جيرد كالمجنون عندما اكتشف انك ضائعة. حتى هورس أيضاً.

- ما قالته ماريا حقيقي. كما انه حقيقي أيضاً انك ستتزوجينني.

وضمها جيرد الى صدره بحرارة، غير عابىء بنظرات ماريا المتسامحة. ثم تابع قائلا:

- كاترين أفكر في هذا الموضوع منذ كنت في انكلترا. خصوصاً عندما رفضت مرافقتنا الى كندا.

- ظننت أنك كنت تفكر فقط في غلين.

- هذا ما قلته لنفسي أيضاً. ولكنه لم يكن الحقيقة. وكنت عازماً لو أنك لم تأت معنا، أن أعود انا اليك. ولكني كنت أظن انك ستتزوجين من سيمون. ولا أكتمك، لقد كنت غيوراً جداً.

- ولكن ليزا...

- دعينا من ليزا. يكفي انني أحاول الا اكرهها لما فعلته بك. لا بد انها فقدت عقلها.

- كان عليها ان تعرف انك ستبحث عني.

بانت القسوة في عينيه، وقال:

- ماذا كانت تعرف؟ كانت تعرف انني من المفروض ان أكون في كالجري. يا الهي، لو اني لم أزر هورس، ولو اني لم أعد الى المنزل بعد زيارته

قبل ذهابي الى كالجري فالله وحده يعلم ماذا كان سيحدث لك. لقد عرفت من غلين انك ذهبت بصحبة ليزا. ولا أعلم لماذا انقبض قلبي. وعدلت عن الذهاب الى كالجري. في ذلك الوقت فقط أعلمني غلين انه استعاد بصره.

- ظننت انك كنت تعرف.

- لماذا ظننت؟ هل هذا ما أخبرتك به ليزا؟ هل تظاهرت أيضاً بأني أريدك ان تغادري شلالات موز؟ هل قالت أن بيني وبينها علاقة؟ صدقيني يا كاترين، انه ليس مهماً ما يمكن ان تظنيه. ليس مهماً ما قالته لك ليزا. المهم هو الحقيقة. والحقيقة انَ علاقتي بأرملة أخي علاقة قربى فقط. لا أنكر أني فتنت بها مرة، كان ذلك منذ سنين عديدة، عندما كنت صغيراً. كان هوى عابراً وانتهى. ولكني بعد مقتل أخي، شعرت اني مسؤول تجاهها وتجاه ابن اخي غلين. وهذه الورقة هي التي كانت تلعب بها دائماً.

قالت كاترين بدلال:

- حبيبي جيرد. أنا لا يهمني ما نوع العلاقة التي كانت بينك وبين ليزا فيما مضى. ما دمت أنا هي التي تحبها الآن، وتريد ان تتزوجها. ولكني أظن انها تحبك.

- الواقع أنها تريد المزرعة فقط، هذا هو كل شيء. وهي تعلم انني لو تزوجت من غيرها، فلن تؤول المزرعة الى غلين.

- لكن غلين لا يريد..

- أنا أعرف، غلين لا يريد المزرعة. فهو مثل أبيه، يريد ان يرحل عن كندا. على كل لقد انتهى الآن كل شيء. ومن المؤكد ان ليزا ستقوم برحلة بعيدة عن المزرعة. وعندما تعود سأشتري لها منزلا في كالجري. وفي تلك الحالة ستكون لديها أمور كثيرة، تشغلها عن ازعاجنا.

- جيرد، ماذا عن بن؟ لا تبعده عن هنا، أرجوك. أنا أعلم انه يزعجك في بعض الأحيان، ولكن...

- لن أفعل، انه أبي يا كاترين. فقد كان من جملة أسباب كرهه لليزا، ظنه انه لذا ما أصبحت هي سيدة هذا المنزل انها سترغمني على أن ألقي به خارجاً. ولكن تأكدي انني لن أفعل هذا أبداً. يبدو أنك ستجعلينني غيوراً، لأنك ستجدين رجلين حولك يحبانك.

ابتسمت كاترين بسرور وقالت:

ـ ان حبك يكفيني يا جيرد، وأنت تعرف هذا. متى سنتزوج؟

ـ أريد أن أتأكد أولاً انك لن تختفي مثل أختك.

ـ لا، لن أفعل. لقد ذكّرتني فيجب ان اكتب لأبي واختي. لا شك انهما سيفاجآن عند سماعهما هذا النبأ السعيد.

ـ يمكنني ان أقول لو أن...

قاطعته كاترين وهي تربت على خده بدلال وقالت:

ـ لو أن فالتينا لم تقد سيارة غلين، ولو ان غلين لم يصب بتلك الحادثة...

تابع جيرد كلامها وهو يضع ذراعه على كتفيها بحب عميق:

ـ لما كنا التقينا. هل تظنين ذلك؟ أنا متأكد أننا كنا سنلتقي بطريقة ما ان عاجلاً أو آجلاً. لقد كنت في انتظارك طيلة حياتي.

ـ آه يا حبيبي. أريد أن أصدق ذلك، لأنني لا أستطيع أن أتخيّل حياتي من دونك كيف يمكن ان تكون.